أئمة الأدب

الصاحب
ابن عباد

بقلم

خليل مردم بك

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٣٥١ هـ

١٩٣٢ م

مطبعة الترقي بدمشق

(ملحوظة)

سبق الكلام في الجزء الثالث من ائمة الادب على عصر ابن العميد والنهضة الفارسية والدولة البويهية وفيه ما يجزئ عن الكلام على عصر الصاحب ابن عباد والحياة السياسية والاجتماعية اذ ذاك لان ابن عباد عاصر ابن العميد وشركه في الجنس وخلفه في العمل .

الصاحب ابن عباد

(٣٢٦ - ٣٨٥)

نسبه

ينتسب الصاحب ابن عباد الى اسرة فارسية شريفة معروفة بالوجاهة والعلم والادب فهو كافي الكفاة ابو القاسم اسمعيل ابن ابي الحسن عباد بن العباس بن عباد بن احمد بن ادريس الطالقاني نسبة الى الطالقان من اعمال قزوين والصاحب لقبه قال ابو سعيد الرستمي فيه :

ورث الوزارة كابراً عن كابر موصولة الاسناد بالاسناد
يروي عن العباس عباد وزا رتـه واسمعيل عن عبـاد

وقال ابو بكر الخوارزمي : «الصاحب نشأ من الوزارة في حجرها ودب ودرج من وكرها ورضع افاويق درها وورثها عن ابيه»

اما والده ابو الحسن عباد فقد كان يلقب بالامين وكان ديناً خيراً مقدماً في صناعة الكتابة وكتب لركن الدولة وكان ينصر مذهب الاشعاني تديناً وطلباً للزلفى عند ربه كما قال ابو حيان التوحيدي .

وقد ورد ذكر عباد في كتاب الانساب للسمعاني وفي معجم الادباء لياقوت فذكرا عنه انه « كان من اهل العلم والفضل سمع ابا خليفة الفضل بن الحباب وابا بكر محمد بن يحيى المروزي وجعفر بن محمد بن الحسن القرماني ومحمد بن حبان المازني وجماعة من البغداديين والاصفهانيين والرازيين وروى عنه ابو اسحق بن حمزة الحافظ وابو الشيخ وابن مردويه الاصفهاني وابنه الوزير ابو القاسم ابن عباد والف كتاباً في احكام القرآن جود فيه ونصر فيه مذهب الاعتزال استحسنه كل من رآه . وكانت بينه وبين الحسن بن عبد الرحمن بن حماد القاضي مكاتبات ومراسلات قال ياقوت انها مذكورة مدونة ».

وتولى عباد وزارة ركن الدولة قبل ابن العميد ؛ يدل على ذلك رسالة كتبها ابن العميد للصاحب ابن عباد ورد فيها :

« مولاي وان كان سيداً بهرتنا نفاسته وابن صاحب تقدمت علينا رياسته[1] . . . »

وتوفي عباد سنة اربع وثلاثين وثلاثمائة .

مولده وموطنه

ولد الصاحب ابن عباد بالطالقان لاربع عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة ست وعشرين وثلاثمائة والطالقان ولاية بين قزوين و بهر وهي عدة قرى يقع عليها هذا الاسم . وبخراسان ايضاً بلدة تسمى الطالقان وليست بلدة الصاحب .

نشأته

نشأ الصاحب في بيت علم وفضل ووجاهة واقبل على طلب العلم والادب منذ صغره و كان اذا اراد المضي الى

(١) انظر هذه الرسالة في ائمة الادب ج ٣ ص ٩١

المسجد ليقرأ تعطيه والدته في كل يوم ديناراً ودرهماً وتقول له تصدق بهما على اول فقير تلقاه فكان هذا دأبه في صغره وشبابه الى ان كبر .

سمع من ابيه وجماعة وتتلمذ لاحمد بن فارس فاخذ عنه الادب في الري « وابن فارس نحوي على طريقة الكوفيين حمل الى الري ليقرأ عليه ابو طالب بن نفر الدولة » كما انه اخذ عن ابن العميد في الري الادب والشعر والترسل وروى عن البغداديين والرازيين .

والف في عنفوان شبابه كتاب الوقف والابتداء و كان ابو بكر ابن الانباري له كتاب في الوقف والابتداء فارسل اليه ابو بكر يقول : انما صنفت في الوقف والابتداء بعد ان نظرت في سبعين كتاباً تتعلق بهذا العلم فكيف صنفت هذا الكتاب مع حداثة سنك ؟ فقال الصاحب للرسول قل للشيخ نظرت في النيف وسبعين التي نظرت فيها ونظرت في كتابك ايضاً .

عند ابن العميد

كان الصاحب في بدء امره من صغار الكتاب يخدم استاذه ابا الفضل ابن العميد على خاصة ولاجل صحبته لابن العميد لقب بالصاحب فكان يقال صاحب ابن العميد ثم اطلق عليه هذا اللقب لما تولى الوزارة وبقي علماً وهو اول من لقب به من الوزراء .

كان ابن العميد يعطف على الصاحب ويتوسم فيه النجابة كما كان الصاحب يعجب بابن العميد ويجله . يحكى انه لما رجع الصاحب من بغداد دخل على ابن العميد فقال له كيف وجدت بغداد فقال : بغداد في البلاد مثل الاستاذ في العباد وانشده :

افاضل الناس وان برزوا لم يبلغوا غاية استاذها
اما ترى امصارها جمة ولا ترى مصرا كبغداذها

وكان ابن العميد قد قدم مرة الى اصبهان والصاحب بها فكتب اليه يقول :

قالوا ربيعك قد قدم فلك البشارة بالنعم

قلت الربيع اخو الشتا ... ء ام الربيع اخو الكرم
قالوا الذي بنواله ... يغني المقل عن العدم
قلت الرئيس ابن العمي ... د اذاً فقالوا لي نعم

وقال في قدومه الى اصبهان ايضاً :

قدم الرئيس مقدماً في سبقه ... و كأنما الدنيا جرت في طرقه
يحبالها من حلمه وبحارها ... من جوده ورياضها من خلقه
و كأنما الافلاك طوع يمينه ... كالعبد منقاداً لمالك رقه
قد قاسمته نجومها فنحوسها ... لعدوه وسعودها في افقه
ما زلت مشتاقاً لنور جبينه ... شوق الرياض الى السحاب وودقه
حتى بدا من فوق اجرد سابح ... ان قال فت الريح فاه بصدقه
يحكي السحاب طلوعه فصهيله ... من رعده ومسيره من برقه
فنظمت مدحاً لا وفاء بمثله ... وسجدت شكراً لانهوض بحقه

وقال في توديعه :

اودع حضرتك العاليه ... ونفسي لا ادمعي هاميه
ومن ذا يودع هذا الجنا ... ب فتهنأه بعده العافيه
جناب رعيت به جنة ... قطوف مكارمها دانيه
رأيت به فائضات العلا ... وعلمت ما الهمم العاليه

كاني بغداد في شوقها اليك وادمعها الجاريه
وانت المرجى لاظفارها بآمالها وبآماليه
ولو كنت تأذن لي في المسير راذآسرت في جملة الحاشيه
سبقت جوادك مد الطرف ق وسرت وفي يدي الفاشيه

وله فيه مدائح كثيرة منها قوله :

من لقلب يهيم في كل واد وقتيل للحب من غير واد
انما اذكر الغواني والمة صد سعدى مكثراً للسواد
واذا ما صدقت فهي مراي ومنالي وروضتي ومرادي
وندى ابن العميد اني عميد من هواها اليه الايجاد
لو درى الدهر انه من بنيه لازدرى قدر سائر الاولاد
اورأى الناس كيف يهتز للمجـ ـد لما عدوه في الاوتاد
ايها الآملون حطوا سريعاً برفيع العماد واري الزناد
فهو ان جاد ضن حاتم طي وهو ان قال قلّ قس اياد
واذا ما ارتأى فابن زياد من علاه وابن آل زياد
قبل العيد يستعير حلاه من علاه العزيزة الانداد
سيضحي فيه بمن لا يوالي ه ويبقى بقية الاعياد
مديحي ان لم يكن طال ايا تاً فقد طال في مجال الجياد

ان خير المداح من مدحته شعراء البلاد في كل ناد

وقوله :

لما ترى اليوم كيف جاد لنا يستهل الشؤبوب منسجمه
يحكي ابا الفضل في تفضله هيهات ان يعتزي الى شيمه
كم حاسد لي وكنت احسده يقول من غيظه ومن المه
قال ابن عباد المنى كلمت اذ عده ابن العميد من خدمه

وقوله من قصيدة ذكر فيها نقرسا نال يمناه :

ابو الفضل من اجرى الى الفضل يافعاً

فظل به يدعى وصار به يكنى

سلامته شمس المعالي وسقمه كسوف المعالي لا كسفن ولا بنا
ولم يأنه ورد السقام لغير ما عرفنا فخذ معنى تأمله منا
وما راده الا ليشغل عن ندى والآ فإ قد خص بالألم اليمنى
وما يعجز البحر الخضم عن الندى ولا السيد الاستاذ عن جوده يثنى

ومن اخباره مع ابن العميد ما حدث به قال : حضرت مجلس ابن العميد عشية من عشايا شهر رمضان وقد حضر الفقهاء والمتكلمون للمناظرة وانا اذ ذاك في ريعان شبابي فلما تقوض ذلك المجلس وانصرف القوم وقد حل الافطار

انكرت ذلك بيني وبين نفسي وعجبت من غفلته لامر بتفطير الحاضرين مع وفور رياسته وعاهدت الله الا اخل بما اخل به اذا قمت يوماً مقامه .

وبقي الصاحب في خدمة ابن العميد الى ان صار كاتباً لمؤيد الدولة كما سيأتي في الفصل الذي يلي هذا الفصل وظل على اخلاصه لابن العميد حتى توفي ابن العميد سنة ٣٦٠ فتحولت تلك الصداقة الى عداوة بين ابي الفتح ابن ابي الفضل ابن العميد وبين الصاحب كما سيمر بك حتى صار الصاحب يتحرف عمن يمت بصحبة لآل العميد قال الثعالبي كان الصاحب متحرفاً عن ابي الحسين ابن فارس لانتسابه الى خدمة ابن العميد وتعصبه له فانفذ اليه من همذان كتاب الحجر من تأليفه فقال الصاحب رد الحجر من حيث جاءك ثم لم تطب نفسه بتركه فنظر فيه وامر له بصلة . مع ان الصاحب تلميذ ابن فارس وفيه يقول : « شيخنا ابو الحسين ممن رزق حسن التصنيف ونفس فيه من الصحيف » .

وقد ورد في احدى رسائل الصاحب ما يدل على موجدته

على آل العميد قال[1] (... وفلان يعرفك ما رسمت خراجه من معاملتك فتعلم في حفظك ذلك احتياط الصديق ووضعت النظر والتسويغ وضع ذوي الاهتمام الصريح وحذفت ما كانت العميدية والقمية[2] لزمته من صروف وطالت به من قروف)

وقال ابو حيان التوحيدي : ما دنني اذ قال لي «الصاحب» هل وصلت الى ابن العميد ابي الفتح ؟ فقول نعم رأيته وحضرت مجلسه وشهدت ما جرى له وكان من حديثه فيما مدح به كذا وكذا وفيما تقدم منه كذا وكذا ووصل ابا سعيد السيرافي بكذا وكذا ووهب لابي سليمان المنطقي كذا وكذا فيزوي وجهه ويكسر حديثه وينحدب الى شيء آخر ليس مما شرع فيه ولا مما جرك له ثم يقول علم انك اذا تحفته من العراق وقرأ علي رسالتك التي توسلت اليه بها وسهت مقرظاً له فيها وتمانع فيأمر ويشدد فسأقرأها

---

(١) المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد ص ١٠٢ (مخطوط)

(٢) لعله يريد بالقمية ابا عبد الله القمي وزير ركن الدولة قبل ابن العميد .

فيتغير ويدهل ، ثم يقال لي من بعد جبيت على نفسك حتى ذكرت عدوه عنده بخير وانثنيت عليه وجعلته سيد الناس

عند مؤيد الدولة

قال صاحب كتاباً يحدث ان العميد في الري الى ان استكتبه بن العميد لمؤيد الدولة ابي منصور بويه ابن ركن الدولة في صبهان ومؤيد الدولة حينئذ امير في عنفوان الشباب وابوه ركن الدولة لا يرى حياً ولابن العميد رسالة يبتدئ بها الصاحب باختياره كاتباً لمؤيد الدولة ومهذباً حاء فيها « ... ولكن ولي النعمة يريد لتهذيب ولده ومن هو ولي عهده من بعده ... فلا يبخلن مولاي على ولي نعمته بفضل معرفته ...»

لا نعلم في اي سنة اختير الصاحب لكتابة مؤيد الدولة ولكنا نعلم ان ذلك كان قبل سنة ٣٤٧ اي حينما كان الصاحب ابن عشرين سنة فقد ورد في كتاب تجارب الامم لمسكويه في

حوادث سنة ٣٤٧ ما نصه «وفيها ورد لامير ابو منصور بويه ابن ركن الدولة الى بغداد يخطب ابنة معز الدولة ومعه ابو علي ابن ابي الفضل القاشاني وزيرا ومعه ابو القاسم اسمعيل ابن عباد يكتب على سبيل الترسل فلما كانت ليلة السبت لليلتين خلتا من جمادى الاولى زفت بنت معز الدولة الى ابي منصور بويه ثم حملها الى اصبهان»

خدم مؤيد الدولة صحبة الصاحب وانس به لأنه احسن في خدمته وحاز ثقته وآنس منه كفاية وشهامة فلقبه بالصاحب كافي الكفاة كما يقول الصابي في كتاب التاجي فاستمر عليه لقب الصاحب واشتهر به وكان اول من سمي به ثم سمي به كل من ولي الوزارة من بعده .

تنقسم خدمة الصاحب لمؤيد الدولة الى قسمين قسم كان فيه كاتباً لا وزيراً وذلك من سنة ٣٤٧ «على وجه التقريب» الى سنة ٣٦٦ وهي السنة التي قتل فيها ابو الفتح ابن ابي الفضل ابن العميد وتولى مكانه الصاحب . وقسم كان فيه الصاحب وزيراً لمؤيد الدولة وذلك من سنة ٣٦٦ الى وفاة مؤيد الدولة سنة ٣٧٣ .

وقد كانت اقامته مع مؤيد الدولة في القسم الاول من خدمته باصبهان ومن اخباره فيه انه سافر مع مؤيد الدولة الى بغداد سنة ٣٤٧ كما ذكر من قبل فعجبته بغداد كثيراً حتى قال لما سأله عنها ابن العميد « بغداد في البلاد كالاستاذ في العباد » وفي بغداد اجتمع الصاحب بابي سعيد السيرافي وغيره من العلماء قال الصاحب: « انتهيت الى ابي سعيد السيرافي وهو شيخ البلد وفرد الادب وحسن التصرف ووافر الحظ من علوم الاوائل فسلمت عليه وقعدت اليه وبعضهم يقرأ الجمهرة فقرأ أَنْقَتُ فقلت انما هو لَمَقْتُ قد فعني الشيخ ساعة ثم رجع الى الاصل فوجد حكايتي صحيحة واستمر القاريء حتى انشد وقد استشهد :

رسم دار وقفت في طلله كدت اقضي الغداة من جلله

فقلت ايها الشيخ هذا لا يجوز والمصراعان على هذا النشيد يخرجان من بحرين لان :

رسم دار وقفت في طلله فاعلاتن مفاعلن فعلن

(و) كدت اقضي الغداة من جلله مفتعلن فاعلاتن مفتعلن

فذاك من الخفيف وهذا من المنسرح. فقال لم لا تقول

الجميع من المنسرح والمصراع الاول محزوم ، فقلت لايدخل الخزم هذا البحر لان اوله مستفعلن مفاعلن هذه مرحمة عنه واذا حذفنا متحركاً بقيا ساكناً وليس في كلام العرب ابتداء به وانما هو:

(كدت أقضي الغداة من جلله)

بتخفيف الضاد فأمر بتغييره ورفعني الى جنبه وابتدأ يقرئ عليه من كتاب المقتضب باب ما يجري وما لا يجري الى أن ذكر (وسَحَرَ) وانه لا ينصرف اذ كان السحر بعينه لانه معدول عن لاول فقلت ما علامة العدل فيه فقال انا قدنا السحر ثم قلنا سحر فعلمنا ان الثاني معدول عن الاول . قلت لو كان كذلك لوجب ان تطرد العلة في عتمة لانك تقول العتمة ثم تقول عتمة فصجر واحتد وصاح وربد ودعيت انه ناقص والتمس لتحاكم فكتبت رسالة اخذت فيها خطوط اهل النظر وقد أنفدت درج كتبي نسختها وفيها خط أبي عبد الله بن رذام عين مشايخهم . ورأيت الشيخ بعد ذلك عزيزاً وضلاً متوسماً عالماً فعلقت عليه وخدمته وحصلت تفسيره لكتاب سيبويه وقرأت صدراً منه

وهناك ابو بكر ابن مقسم وما في اصحاب ثعلب أكثر
دراية ولا اصح رواية منه وقد سمعت مجالسه وفيها غرائب
ونكت ومحاسن وطرف من بين كلمة نادرة ومسألة غامضة
وتفسير بيت مشكل وحل عقد معضل وله قيام بنحو الكوفيين
وقراءتهم ورواياتهم ولغاتهم . وتقاضي ابو بكر بن كامل
بقية الدنيا في علوم شتى بعرف الفقه والشروط و لحديث وما
ليس من حديثه ويتوسع في النحو توسعاً مستحسنا وله في
حفظ الشعر بضاعة واسعة وفي جودة التصنيف قوة تامة
ومن كبار رواة المبرد وثعلب والعنزي وابي العباس وغيره
وقد سمعت صدراً صالحاً مما عنده وكنت احب ان اسمع
كلام اهل المطر بالعراق لما تسمع في حذقهم من الاوصاف .

قال ابو اسحق الصابي : حضر الصاحب ابو القاسم ابن
عباد دار الوزير المهلبي عند وروده الى بغداد مع مؤيد الدولة
فحجب عنه لشغل كان فيه وجلس طويلا فلما تأخر الاذن
كتب اليّ رقعة لطيفة فيها :

وتركتك محجوباً على الباب كالذي ... ويدخل غيري كالذي ... ويخرج

فقرأتها الوزير المهلبي فأمر بإدخاله . قال وكان الصاحب

عند دخوله الى بغداد قصد القاضي ابا السائب عتبة بن عبيد لقضاء حقه فتثاقل في القيام له وتحفز تحفزاً أراه به ضعف حركته وقصور نهضته فاخذ الصاحب بضبعه وأقامه وقال نعين القاضي على قضاء حقوق اخوانه فخجل ابو السائب واعتذر اليه .

وقال الصاحب ما زال احداث بغداد يذاكرونني بابن شمعون المتصوف وكلامه على الناس في مكان الشبلي فجمعت يوماً في المدينة وعليّ طيلسان ومصمتة ووقفت عليه وقد لبس فوطة قصب وقعد على كرسي ساج بوجه حسن ولفظ عذب فرأيته يقطع مسائله بهوس يطيله ويسهب فيه فقلت لا بد من أن أسأله عما أقطع به وابتدرت فقلت يا شيخ ما تقول في قدميكونيات العلم اذا وقعت قبل التوهم فورد عليه ما لم يسمع به فاطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال لم أؤخر اجابتك عجزاً عن مسألتك بل لاعطشك الى الجواب واخذ في ضرب من الهذيان فلما سكت قلت هذا بعد التوهم وانما سألتك قبله الى ان ضجر فانصرفت عنه .

ولما عاد الصاحب من بغداد اخذ معه ابا الحسن البديهي الى

(١) معجم الادباء ج ٢ ص ٣١٩

اصبهان . واستهوته محاسن بغداد حتى حسن لفخر الدولة الاستيلاء عليها كما سيأتي .

وفي مدة كتابته لمؤيد الدولة زار المتنبي ابن العميد وطمع الصاحب في زيارة المتنبي اياه باصبهان واجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان وهو اذ ذاك شاب والحال حويلة وبحر دجيلة ولم يكن استوزر بعد فكتب يلاطفه في استدعائه ويضمن له مشاطرته جميع ماله فلم يقم له المتنبي وزنا ولم يجبه عن كتابه وقيل ان المتنبي قال لاصحابه ان عليماً معطاءاً يريد ان ازوره وامدحه ولا سبيل الى ذلك فصيره الصاحب غرضاً يرشقه السهام الوقيعة ويتتبع عليه سقطاته في شعره وهفواته ويبغي عليه سيئاته وهو اعرف الناس بحسناته واحفظهم واكثرهم استعمالا لها وتمثلاً بها في محاضراته ومكاتباته [٢]

وربما كان بناء القصر الذي شيده الصاحب باصبهان في القسم الاول من خدمته لمؤيد الدولة لان اقامته كانت باصبهان في ذلك القسم قال الثعالبي في يتيمة الدهر قرأني ابو بكر الخوارزمي كتاباً لابي محمد الخازن ورد عليه في ذكر الدار التي

(٢) الصبح المنبي ص ٨٢

بناها الصاحب باصبهان وانتقل اليها واقترح على اصحابه وصفها وهذه نسخته بعد الصدر انعم الله عند مولانا الصاحب ادام الله تأييده مترادفة ، وايادية متضاعفة ، وارى اولياء النعم كبت الله اعداءهم تتظاهر كل يوم حسناً في عظامه ، وبصائرهم تترامى قوة في اكرامه ، وتوفود على بابه المعمور كرحل الجراد وانتقل الى البناء المعمور بالفأل المسعود فرأينا يوماً مشهوداً ، وعيداً يجنب عيداً ، واجتمع المادحون وقال القائلون ولو حضرتني القصائد كلها لانفذتها لا اني علقت من كل واحدة ما علق بحفظي والشيخ مولاي يعرف ملك النسيان رقي) ثم ذكر قصائد للشعراء الآتية اسماؤهم في وصف تلك الدار وهم : ابو العباس الضبي وابو الحسن صاحب البريد وهو ابن عمة الصاحب وابو الطيب الكاتب وابو سعيد الرستمي وابو الحسن الجرجاني وابو القاسم الزعفراني وابو القاسم ابن ابي العلاء وابو محمد ابن المنجم وابو عيسى ابن المنجم وابو القاسم عبيد الله بن محمد بن المعلا ابوه وابو العلاء الاسدي وابو الحسن العويري وابن عطية وابو بكر الخوارزمي وغيرهم

***

اما القسم الثاني من خدمة الصاحب لمؤيد الدولة الذي

صار فيه الصاحب وزيراً فيبتدئ من سنة ٣٦٦ الى سنة ٣٧٣ وذلك ان ركن الدولة عهد قبل وفاته سنة ٣٦٦ الى ولده عضد الدولة بالملك من بعده وجعل لولده فخر الدولة علي همدان واعمال الجبل ولولده مؤيد الدولة اصبهان واعمالها .

وفي المحرم سنة ٣٦٦ توفي ركن الدولة وكان وزيره ابو الفتح ابن ابي الفضل بن العميد فورد ابنه مؤيد الدولة من اصبهان الى الري في صفر وخلع على ابي الفتح واستوزره في شهر ربيع الاول وكان مع مؤيد الدولة الصاحب فكتب الى ابي الفتح كتاب تهنئة بالوزارة وله انا هنيء طال الله بقاء مولاي الوزارة بالقائها الى فضله مقادتها (١) . .) فكره ابو الفتح موضعه وبعث الجند على الشعب حتى هموا بقتله وتلطف الصاحب في خلال ذلك لابي الفتح وقال له : انا اتظلم منك اليك واتحمل لك عليك وهذا الاستيحاش سهل الزوال اذا تألفت الشارد من حلمك وعطفت على الشائع من ذكرك ولني ديوان الانشاء واستخدمني فيه ورتبني بين يديك واحضرني بين امرك ونهيك وسمني برضاك فاني صنيعة والدك واتخذني بهذا صنيعة لك وليس يجمل

(١) المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد ص ١٢٦ (مخطوط)

ان تكر على ما بنى ذلك الرئيس فتهدمه وتنقضه ومتى احتجتني الى هذا وامنتني فاني اكون خادمك بحضرتك وكاتباً يطلب الرفعة عندك في صغير امرك وكبيره وفي هذا اطفاء النائرة التي قد ثارت بسوء ظنك وتصديقك اعدائي عليّ .

فقال ابو الفتح في الجواب : والله لا تجاورني في بلد السرير وبحضرة التدبير وخلوة الامير ولا يكون لك اذن عليّ ولا عين عندي وليس لك مني رضى الا بالعود الى مكانك من اصبهان والسلو عما تحدث به نفسك

فأمر مؤيد الدولة الصاحب بالعودة الى اصبهان فخرج من ري لثمان خلون من شهر ربيع الأول سنة ٣٦٦ على صورة قبيحة متنكراً بالليل وذلك انه خاف الفتك والغيلة وبلغ اصبهان والقى عصاه بها ونفسه تغلي وصدره يفور والخوف شامل والوسواس غالب وهم ابو الفتح بانفاذ من يطالبه ويؤذيه ويهينه ويعسفه .

قال الوزير ابو سعد سمعت الصاحب يذكر امره فقال في اثناء كلامه ان مؤيد الدولة قال لي عند خروجي الى اصبهان ان ورد عليك كتاب بخطي او جاءك اجل حجابي وثقاتي بالاستدعاء فلا تبرح من اصبهان ولا تفارقها الى ان يجيئك فلان

الركابي فانه ان اتجهت لي حيلة على هذا الرجل (ابو الفتح بن ابي الفضل بن العميد) وامكنني الله من القبض عليه بادرت به اليك وهو العلامة بيني وبينك . قال فاستعظمت الحداثة سني وعرة الصبي وقلة التجربة ما حكاه الصاحب من قول مؤيد الدولة « ان اتجهت لي حيلة على هذا الرجل » وتعجبت منه واردت البعض من ابي الفتح فقلت وكان لأبي الفتح من القدر ان يصعب حسه او يحتاج صاحبه الى الاحتيال معه ؟ فانتهر في الصاحب وقال يافلان انت صبي تحسب ان القبض على الوزراء سهل فقطعت انه يريد الرفع من شأن الوزارة وتفخيم امرها فعدلت عن كلامي الاول الى غيره .

ولم يمض أكثر من شهر على عودة الصاحب من الري الى اصبهان حتى امر مؤيد الدولة بالقبض على ابي الفتح ثم أمر بقتله واستوزر الصاحب وفوض اليه امور مملكته وحكمه في ماله .

. . .

مرّ بك ان ركن الدولة قبل وفاته عهد بالملك من بعده الى ولده عضد الدولة وجعل لولده فخر الدولة همذان واعمالها وولده مؤيد الدولة اصبهان واعمالها . وكان فخر الدولة مداحياً

لاخوته وقد كاتبه ابن عمه بختيار بن معز الدولة ودعاه الى الاتفاق معه على عضد الدولة فأجابه الى ذلك فعلم عضد الدولة به فحاربه واستولى على بلاده سنة ٣٦٩ واضافها الى اخيه مؤيد الدولة صاحب اصبهان واعمالها فهرب فخر الدولة الى جرجان والتجأ الى شمس المعالي قابوس بن وشمكير فأمنه وآواه .

وفي سنة ٣٧٠ كان عضد الدولة بهمذان فأرسل اليه مؤيد الدولة الصاحب ابن عباد رسولاً يبذل الطاعة والموافقة فتلقاه عضد الدولة على بعد من البلد وبالغ في اكرامه ورسم لاكابر كتابه واصحابه تعظيمه ففعلوا ذلك حتى أنهم كانوا يعشونه مدة مقامه مواصلة ولم يركب هو الى احد منهم

وقد كتب الصاحب الى مؤيد الدولة رسالة يصف فيها ما تلقيه من عطف عضد الدولة جاء فيها (فاما انعام مولانا على عبده وصنيع يده واستقباله بنفسه والدنيا تسير بسيره وخدود النجم مع سنابك خيله وتلقيه اياه بوزراء بابه وامراء اجناده وعظماء قواده متصرفين مع الاعظام والتحفين في اللقاء والسلام ثم رتبتي به في دخولي الى الدار المعمورة بالعز وحضوري المجلس المحفوف بالملك والتبليغ بي الى رتبة

لم يقسمها حرس الله ملكه لاحد مر غشي بابه المأمول من اطراف الأرض وأعيان الشرق والغرب و ستجلاسي بحضرته التي يقف بها القمران على النواصي والهام الى ضروب من الانعام استعطم والله وصفه وان كانت الاخبار قد سدت على متون الرياح[1] بها)

و كان غرض عضد الدولة بذلك استمالة مؤيد الدولة وتأنيس الصاحب[2] . ووردت كتب مؤيد الدولة يستطيل مقام الصاحب و يذكر اضطراب امور بعده . خلع عضد الدولة على صاحب الخلع الجميلة وحمله على فرس بمركب ذهب ونصب له دستاً كاملاً في حركاه يتصل بمصدر به واجلسه فيه واقطعه ضياعاً جليلة من نواحي فارس وحمل الى مؤيد الدولة في صحبته الطافاً كثيرة وضم اليه من العسكر المستأمن عن خر الدولة عدداً ليكونوا برسم خدمة مؤيد الدولة

قال ابو حيان التوحيدي في مثالب الوزيرين[3] . (ل

---

(١) المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد ص١٦٢ (مخطوط)

(٢) ديل تجارب الامم ص ١٠

(٣) معجم الادباء ج ٢ ص ٢٨٢

رجع الصاحب من همدان بعد ان فارق حضرة عضد الدولة استقبله الناس من الري وما يليها واجتمعوا بساوة وقد كان اعدّ لكل واحد منهم كلاما يلقاه به عند رؤيته فاول من دنا منه القاضي ابو الحسن الهمداني من قرية يقال لها اسداباذ فقال له ايها القاضي اما فارقتك شوقا اليك ، ولا فارقتني وجداً عليك ، ولقد مرت لي بعدك مجالس تقبضك ، وتخطبك وترضيك ، ولو شهدتني بين اهلها وقد علوتهم بتبياني ولساني ، وجدلي وبرهاني ، لانشدت قول حسان بن ثابت في ابن عباس وهو :

اذا ما ابن عباس بدا لك وجهه ... رأيت له في كل مجمعة فضلا
اذا قال لم يترك مقالا لقائل ... بملتقطات لا ترى بينها فصلا
كفى وشفى ما في النفوس ولم يدع ... لذي ارية في القول جدا ولا هزلا
سموت الى العليا بغير مشقة ... فنلت ذراها لا دنيا ولا وعلا

ولذكرت ايضا ايها القاضي قول الآخر وانشدته فانه قال فيمن وقف بموقفي ، وقرف مقرفي ، وتصرف تصرفي ، وانصرف منصرفي ، واغترف مغترفي :

اذا قال لم يترك مقالا ولم يقف ... لعي ولم يثن اللسان على هجر

يصرف بالقول للسان اذا انتحى ويبطر في اعطافه بطر الصقر

ولقد اودعت صدر عضد الدولة ما يطيل التفاته لي ، ويكثر حسرته علي ، ولقد رأى مني ما لم ير قبله مثله ، ولا يرى بعده شكله ، والحمد لله (الذي) اوفدني عليه على ما يسر الولي ، واصدرني عنه على ما يسوء العدو ، ايها القاضي ! كيف الحال والنفس ، وكيف المجلس والدرس ، وكيف العرض والحرس ، وكيف الدس والعس ، وكيف الفرس والمرس وكاد لا يخرج من هذا الهذيان لتهيجه واحتدامه وشدة خياله وعلوائه والهمداني مثل الفأرة بين يدي السنور وقد تضاءل وتموّ لا يصعد به نفس الا بنزع تذللا وتقللا هذا على كبره في نفسه .

ثم نظر الى الزعفراني رئيس اصحاب الرأي فقال : ايها الشيخ ! سدني لقاؤك ، وساءني عناؤك ، ولقد بلغني عداؤك ، وما حيله اليك حيلاؤك ، وارجو الا اعيش حتى يرد عليك علواؤك ، ما كان عندي بك تقدم على ما اقدمت عليه ، وتنتهي في عدوانك لاهل العدل والتوحيد الى ما انتهيت اليه ، ولي معك ان شاء الله نهار له ليل ، وليل يتبعه ليل وثبور يتصل به وبل ، وقطر يدفع ومعه سيل ، « وسيعلم الكفار لمن عقبى

الدار » فقال له الزعفراني حسبنا الله ونعم الوكيل

ثم ابصر ابا طاهر الحنفي فقال : ايها الشيخ ! ما ادري شكوك ام اشكو اليك أم شكواي منك ، فانك لم تكاتبني بحرف ، كأنا لم نتلاحظ بطرف ، ولم نتحافظ على الف ، ولم نتلاق على ظرف . وما شكواي اليك فاني ذممت الناس بعدك ، وذكرت لهم عهدك ، وعرضت بينهم ودك ، وقدحت عليهم زندك ، ونشرت عليهم غرائب ما عندك ، فاشتاقوا اليك بتشويقي ، واستصفوك بترويقي ، واثنوا عليك بتنميقي وترويقي ، وهكذا عمل الاحباب ، اذا نأت بهم الركاب ، والتوت دونهم الاعناق ، واضطرمت في صدورهم نار الاشتياق ، فالحمد لله الذي عاد الشعب ملتئماً ، والشمل منتظماً ، والقلوب وادعة ، والاهواء جامعة ، حمداً يتصل بالمزيد ، على عادة السادة مع العبيد ، عند كل قريب وبعيد ، سقى الله ربعاً انت شدته بنزاهتك ، وطبعاً انت اطبته ببراعتك ، ومغرساً انت يبعته بنباهتك .

وقال للعيساباذي : ايها القاضي ! ايسرك ان اشتاقك وتسلو عني ، وان اسأل عنك وتسلّ مني ، وان اكاتبك فتتغافل ، واطالبك بالجواب فتتكاسل ، وهذا ما لا احتمله من صاحب

خراسان ، ولا يطمع في مثله مني ملك بني ساسان ، متى كنت مديلاً بيد ، ومتى زلت عن هذا الحد لاحد ، ان اكفأت علي بالصدر اكفاء ، والا ادرأت عليك بالعنس اندراء ، ثم لا يكون لك فر ر بحال ، ولا يبقى لك بمكاني استكبار الا على وبال وخبال .

ثم طلع ابو طالب العلوي فقال (له) : ايها الشريف ! جعلت حسناتك عندي سيئات ، ثم اضفت اليها هنات ، ولم تفكر في مض ولا آت ، اضعت العهد ، واخلفت الوعد ، وحققت الحس واصلت السعد ، وحلت سريباً للحيران ، بعد ما كنت شراباً للحران ، وظننت انك قد شفعت مني ، واعتضت عني ، هيهات وانى بمثلي ، او من يعتري ذيلي ، او له نهار او ليل كليلي ،

وهل عائص مني وان حل عائض

ان وجد بعد العلم ، وانت ما تسمع علم ، لا الله الا الله سبحان الله ايها الشريف اين الحق لدي وكدته ايمم كادت الشمس تزول ، والزمان علينا يصول ، وما اقول وانت تقول والحال بيننا يحول ، سقى الله ليلة تشيعك وتوديعك ، ونت

متنكر تنكراً يسوء الموالي ، وانا متفكر تفكراً يسوء العدو ونحن متوجهون الى ورامين ، خوفاً من ذلك الجاهل المهين .

(يعني بالجاهل المهين ابا الفتح بن ابي الفضل ابن العميد)

ثم نظر الى ابي محمد كاتب الشروط فقال : ايها الشيخ ! الحمد لله الذي كفانا شرك ، ووقانا عزك وضرك ، وانا نافيحك وحرك ، دببت الضر الينا ، ومشيت الجمر علينا ، ونحن نحبس لك الحبس ، ونصفك باللبابة والكبس ونقول لبس مثله لبس ، وانت في خلال ذلك تقابلنا بالويح والويس ، لولا انك قرحان ، لسقط بك العشاء على سرحان .

وقال لابن ابي خراسان الفقيه الشافعي : ايها الشيخ ! العبث ذكرنا عن لسانك ، واستمررت على الخلوة بلسانك ، جارياً على نسيانك ، مشتهر بفتيانك وافتنانك ، غير عاطف على اخدانك واخوانك ، لولا انني ارعى قديماً قد اضعته ، واعطيك من رعايتي ما قد منعته ، لكان لي ولك حديث ، ما طيب واما خبيث ، حلفتك محتسباً ، فالفيتك مكتسباً ، وتركتك آمراً بالمعروف فلحقتك راكباً للمنكر ، قد تقبل الرأي وتجيب الظن وتكذب الآمل وقد قال الاول :

الارب من تفتشه لك ناصح ومؤنس بالغيب وهو ظنين

ثم نظر الى الشذباشي فقال يا ابا علي ! كيف انت، وكيف كنت ، فقال يا مولانا

لا كنتُ إن كنت ادري كيف كنت ولا
لا كنتُ ان كنتُ ادري كيف لم اكن

فقال اعرب يا ساقط يا هابط ، يا من نذهب الى الحائط بالحائط ، ليس هذا من تحت يدك ، ولا هو مما نشأ من عندك ، هذا لمحمد بن عبد الله بن طاهر وانوله :

كتبت تسأل عني كيف كنت وما
لاقيت بعدك من هم ومن حزن
لا كنتُ ن كنت ادري كيف كنت ولا
لا كنت ان كنت ادري كيف لم اكن

وكان ينشدو هو يلوي رقبته ويحط حدقته ويزري اطراف منكبيه ويتشايل ويتمايل كأنه الذي يتخبطه الشيطان من المس . ثم قال يا ابا علي لا تحول على . . . . . فانك ان عولت على ذلك شملك وخبلك وفضح حالك ومالك ، ثم نظر الى غلام قد بقل وجهه . . . . . .

فانتوى وتقلقل وقال : ان مني يا بني ، كيف كنت ولم حملت على نفسك هذا العناء ، وجهك هذا الحسن لا يتبدل للشحوب ، ولا يعرض للفحات الشمس بين الطلوع الى الغروب ، انت تحب ان تكون بدلة ، بين حجلة وكلة . . . . . هذا آخر حديث الاستقبال) .

***

علمت مما تقدم ان فخر الدولة لما غلب على امره التجأ الى قابوس بن وشمكير في جرجان فطلبه عضد الدولة من قابوس فابى ان يسلمه فجهز اليه عضد الدولة اخاه مؤيد الدولة فسار الى جرجان في منتصف سنة احدى وسبعين وثلاثماية فانهزم قابوس وفخر الدولة واستولى مؤيد الدولة على طبرستان وجرجان واستقر بجرجان وجعلها داره .

وحصل الصاحب في هذه الوقعة على الفيل الذي كان في عسكر العدو فامر من بحضرته من الشعراء ان يصفوه على وزن قصيدة عمرو بن معد يكرب :

اعددت للحدثان سا بغة وعدّاء عندي

فوصفه عبد الصمد بن بابك وابو الحسن الجوهري وابو محمد

الحارن وغيرهم ونجد مختارات من قصائدهم في الجزء الثالث من يتيمة الدهر للثعالبي ص ٦٨ وهي فريدة في بابها في الشعر العربي

وللصاحب ثلاث رسائل كتبها مبشراً بهذا الفتح العظيم تجدها في المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد المخطوط ص ٣ و ٢١ و ٢٤

وفي شوال سنة ٣٧٢ توفي عضد الدولة فسمت نفس أخيه مؤيد الدولة للاستيلاء على الممالك والقيام مقامه فيها ولكنه عوجل فعرضت له علة الخوانيق واشتدت به سنة ٣٧٣ وهو في جرجان فقال له الصاحب لو عهد امير الامراء عهداً الى من يراه يسكن اليه الجند الى ان يتفضل الله تعالى بعافيته وقيامه الى تدبير مملكته لكان ذلك من الاستظهار الذي لا ضرر فيه . فقال له : انا في شغل عن هذا وما للملك قدر مع انتهاء الانسان الى مثل ما انا فيه فافعلوا ما بدا لكم ثم شفي فقال له الصاحب : تب يا مولانا من كل ما دخلت فيه وتبرأ من هذه الاموال التي لست على ثقة من طيبها وخصوصاً من حلها واعتقد متى نامك الله وعافاك صرفها في وجوهها ورد كل

ظلامه تعرفها وتقدر على ردها ففعل ذلك وتلطف به وقضى نحبه في شعبان وهو ابن ثلاث واربعين سنة .

عند فخر الدولة

لما توفي مؤيد الدولة بجرجان ولم يعهد بالملك الى احد من بعده تشاور اكابر دولته فيمن يقوم مقامه فاشار الصاحب باعادة فخر الدولة الى مملكته اذ هو كبير البيت ومالك تلك البلاد قبل مؤيد الدولة ولما فيه من آيات الامارة والملك فكتب اليه واستدعاه وهو بنيسابور على حالة مختلة واضافة شديدة فسار فخر الدولة الى جرجان ودخلها في شهر رمضان سنة ٣٧٣ فتلقاه الصاحب فرحب به فخر الدولة وبالغ في اكرامه وتناهى في اعظامه .

واراد الصاحب اختبار فخر الدولة هل في نفسه عليه شيء مما كان في ايام مؤيد الدولة الذي اوجب هرب فخر الدولة فقال له : « قد بلغك الله يا مولاي ، بلغني فيك ما املته لنفسك

وملته لك ومن حقوق خدمتي عليك احالتي الى ما اوثره من ملازمة داري واعتزال الجندية والتوفر على امر المعاد » فقال له فخر الدولة : « لا تقل ايها الصاحب هذا فاني ما اريد الملك الا لك ولا يجوز ان يستقيم أمري الا بك واذا كرهت ملابسة الامور كرهت ذاك بكراهيتك وانصرفت »[1] فقبل الارض شكراً وقال الأمر امراء وتلا ذلك انه خلع عليه خلع الوزارة واكرمه بما لم يكرم بمثله وزير وصدر عن رأيه في جليل الامور وصغيرها . وكان اذا قال فخر الدولة قولا وقال الصاحب قولا امتثل قول الصاحب وترك قول فخر الدولة وقال الصاحب : ما استأذن لي على فخر الدولة وهو في مجلس الانس الا انتقل الى مجلس الحشمة فيأذن لي فيه وما اذكر انه تبذل بين يديّ ومازحني قط الا مرة واحدة فانه قال لي في شجون الحديث بلغني انك تقول المذهب مذهب الاعتزال و . . . فاظهرت الكراهة لانبساطه

---

(١) كذا في نيل تجارب الامم وفي ابن الاثير . وقد ورد في يتيمة الدهر للثعالبي وفي معجم الادباء لياقوت ان فخر الدولة قال للصاحب لما استعفاه من الوزارة : « لك في هذه الدولة من ارث الوزارة كما لنا من ارث الامارة فليس كل واحد منا ان يحتفظ بحقه » .

وقلت بنا من الجد ما لا نفرغ معه للهزل ونهضت كالمغاضب فما زال يعتذر الي مراسلة حتى عاودت مجلسه ولم يعد بعدها لما يجري مجرى الهزل والمزح .

وبعد ان استقام الامر لفخر الدولة ترك جرجان وانصرف مع الصاحب الى الري عاصمة مملكته سنة ٣٧٣ وبذل الصاحب جهده في خدمة اميره وتوسيع مملكته قال ياقوت في معجم الادباء فتح الصاحب خمسين قلعة سلمها الى فخر الدولة لم يجتمع عشر منها لابيه ولا لاخيه .

وفي المحرم سنة ٣٧٨ اهدى الصاحب الى فخر الدولة دينارا وزنه الف مثقال وكان على احد جانبيه مكتوب :

واحمر يحكي الشمس شكلا وصورة ... فاوصافه مشتقة من صفاته
فان قيل دينار فقد صدق اسمه ... وان قيل الف كان بعض سماته
بديع فلم يطبع على الدهر مثله ... ولا ضربت ضرابه لسراته
فقد ابرزته دولة فلكية (١) ... اقام بها الاقبال صدر قناته
وصار الى شاهانشاه انتسابه ... على انه مستصغر لعفاته
تفاءلت ان يبقى سنين كوزنه ... لتستمتع الدنيا بطول حياته

(١) قال ابن الاثير قوله دولة فلكية يعني ان لقب فخر الدولة كان فلك الامة .

تأنق فيه عبده وابن عبده وغرس ايادية وكافي كفاته وكان على الجانب الآخر سورة الاخلاص ولقب الخليفة الطائع ولقب فخر الدولة واسم جرجان لانه ضرب بها

وحدثته نفسه بالمسير الى العراق وضمه الى مملكة فخر الدولة فقد روى عنه انه قال «ما بقي من اوطاري واغراضي الا ان املك العراق واتصدر ببغداد واستكتب ابا اسحق الصابي ويكتب عني واميّر عليه» . ولا شك ان تلك الامنية تنوقلت عنه حتى صار شعراؤه يصرحون بها في مدائحهم له لسروه قال ابو القاسم الزعفراني من قصيدة يمدح بها الصاحب :

لا ذكرت العراق ما عشت لا ان اراه يؤمه في الجنود

وهكذا فقد زين الصاحب لفخر الدولة سنة ٣٧٩ الاستيلاء على العراق ورد في ذيل تجارب الامم كان الصاحب ابن عباد على قديم الايام وحديثها يحب العداد والرياسة فيها ويراصد اوقات الفرصة لها فلما توفي شرف الدولة سمت نفسه لهذا المراد وظن ان الغرض قد امكن فوضع على فخر الدولة من يعظم في عينيه ممالك العراق ويسهل عليه فتحها واحجم الصاحب عن مفاتحته بذلك خوفاً من خطر العاقبة الى ان قال له فخر الدولة

ما الذي عندك ايها الصاحب فيما نحن فيه فقال الامر لشاهانشاه
وما يذكر من جلالة تلك الممالك مشهور لاخفاء به وسعادته
غالبة فاذا هم بامر خدمته فيه وبلغته اقصى مراميه فعزم
حينئذ على قصد العراق وسار الى همذان واستقر العزم على
أن يسير الصاحب وبدر بن حسنويه على طريق الجادة
ويسير فخر الدولة وبقية العسكر على طريق الاهواز فلما
سار الصاحب قيل لفخر الدولة انه من الغلط مفارقة الصاحب
لك لأنك لاتأمن أن يستميله اولاد عضد الدولة فيميل
اليهم فاستعاده اليه ليسير الى الاهواز فسبق اليها وملكها
ولحقه فخر الدولة بعد عشرين يوماً وأساء السيرة مع جندها
وضيق عليهم ولم يبذل المال فتخاذل الجند وكان الصاحب
قد امسك نفسه تأثراً بما قيل عنه من تهامه . فلما سمع بهاء
الدولة بوصولهم الى الاهواز سير اليهم العساكر والتقوا هم
وعساكر فخر الدولة واتفق ان دجلة الاهواز زادت ذلك الوقت
زيادة عظيمة وانفتحت الشوق منها فطنها عسكر فخر الدولة
مكيدة وقال بعضهم لبعض انما حملنا الصاحب لهذه البلاد
طلباً هلاكنا فانهزموا فقلق فخر الدولة من ذلك وكان قد

استبد برأيه عضد حينئذ الى رئي الصاحب فاشار ببذل المال واستصلاح الجند وقال له ان الرأي في مثل هذه الاوقات اخراج المال وترك مضايقة الجند من اطلقت المال ضمنت لك حصول اضعافه بعد سنة فلم يفعل ذلك وتفرق عنه كثير من عسكر الاهواز وتسع الخرق عليه وضاقت الامور به فعاد الى الري وعدت الاهواز الى بهاء الدولة .

وفي سنة ٣٨٤ خطب الصاحب ابنة ابي الفضل ابن الداعي سعده عباد بن علي بن الحسين قال ياقوت في معجم الادباء ووقع لاملاك في داره يوم الخميس لاربع خلون من شهر ربيع الاول سنة ٣٨٤ وكان يوماً عظيماً احتفل فيه كافي الكفاة وشتر من الدنانير والدراهم شيئاً كثيراً ولذلك انفذ فخر الدولة على يدي احد حجابه الكبار الى هناك من النثار ما زاد على مائة طبق عيناً وورقاً وكانت ام العروس ديكونة بنت الحسن بن الفيرورزان خالة فخر الدولة فاضاف الصاحب الناس ونصبت مائدة عظيمة في بيت طوله يزيد على خمسين ذراعاً وكانت بطول البيت ووقف ابو العباس

الفيروزان وعبد الملك بن ماكان للخدمة ووقف كافي الكفاة ايضاً ساعة ووقف جميع اكابر الكتاب والحجاب الى ان فرغ القوم من الأكل ثم اكل هؤلاء مع الصاحب على مائدة مفردة واما قاضي القضاة والاشراف والعدول فانهم اطعموا على مائدة اخرى في بيت آخر

وفي سنة ٣٨٤ توفيت والدة الصاحب قال ابو سعد منصور بن حسين الآبي : توفيت ام كافي الكفاة باصبهان وورد عليه خبر فجلس للتعزية يوم الخميس للنصف من محرم سنة ٣٨٤ وركب اليه سلطانه وولي عهده فخر الدولة ابن ركن الدولة معزيا وجلس عنده طويلاً يعزيه ويسكن منه وبسط الكلام معه بالعربية وكان يفصح بها فسمعته يقول حين اراد القيام بها لصاحب هذا خرج لا يندمل . فاما سائر الامراء والقواد مثل منوچهر بن قابوس ملك الجبل وفولاد بن زماندار احد ملوك الديلم وابي العباس الفيروزان ابن خالة فخر الدولة وغيرهم من الاكابر والاماثل فانهم كانوا يحضرون حفاة حسراً وكان كل واحد منهم

(١) معجم الادباء ج ٢ ص ٣٠٤

اذ وقعت عينه على الصاحب قبل الارض ثم يوالي بين ذلك الى ان يقرب منه ويأمره بالجلوس وما كان يتحرك ولا يستوفز لأحد بل كان جالساً على عادته في غير ايام التعزية

وفاته

كان الصاحب يردد في سنة وفاته قوله

اناخ بسيب ضيفاً لم اردّه ولكن لا طيق له مردا
ردء للردى فيه دليل تردى من به يوماً تردى

قال الثعالبي في يتيمة الدهر ولما كنى المنجمون عما يعرض له في سنة موته وقال :

يا مالك الارواح والاجسام وخالق النجوم والاحكام
مدبر الضياء والظلام لا مشتري رجوه للانعام
ولا اخاف الضر من بهرام وما النجوم كالاعلام
والعلم عند الملك العلام يا رب فاحفظني من الاسقام

ووقني حوادث الايام وهجنة الاوزار والآثام
هبني لحب المصطفى المقام وصنوه وآله الكرام

وكتب بخطه على تحويل السنة التي دلت على انقضاء عمره :

ارى سنتي قد صمت بعجائب وربي يكفيني جميع النوائب
ويدفع عني ما اخاف بمنه ويؤمن ما قد خوفوا من عواقب
اذا كان من اجرى الكواكب امره معيني فما خشي صروف الكواكب
عليك ايا رب السماء توكلي فحظي من شر الخطوب الحوارب
وكم سنة حذرتها فتزحزحت بخير واقبال وحد مصاحب
ومن اضمر اللهم سوءا لمهجتي فرد عليه كيد خيب خائب
فلست اريد سوءا بالناس انما اريد بهم خير مريع الجوانب
وادفع عن اموالهم ونفوسهم بجدي وجهدي بذلا للمواهب
ومن لم يسعه ذاك مني فانني سأكفاه ان الله اغلب غالب

ولما اعتل كان امراء الديلم وكبراء الناس يروحون الى بابه ويفدون ويخدمون بالدعاء وينصرفون وبلغه عن بعض اصحابه شماتة فقال :

وكم شامت بي بعد موتي جاهلا بظلمي يسل سيف بعد وفاتي

ولو علم المسكين ماذا يناله من الظلم بعدي مات قبل مماتي

ووجد في بعض ايام مرضته التي توفي فيها خفة فاذن للناس وحل وعقد وامر ونهى وعلى كتبا تعجب الحاضرون من حسنها وفرط بلاغتها

وقال :

كلامنا من عزر وعيشنا من غرر

اني وحق خالقي على جناح السفر

وعاده فخر الدولة عدة مرات فقال لفخر الدولة اول مرة وهو على يأس من نفسه : قد خدمتك ايها الامير خدمة استفرغت قدر الوسع وسرت في دولتك سيرة حسنت لك حسن الذكر بها فان اجريت الامور بعدي على نظامها وقررت القواعد على احكامها نسب ذلك الجميل السابق اليك ونسيت انا في الثناء ما يثني به عليك ودامت الاحدوثة الطيبة بك وان غيرت ذلك وعدلت عنه كنت بالمشكور على السيرة السالفة وكنت انت المذكور بالطريقة الآنفة وقدح في دولتك ما يشيع في المستقبل عنك فاظهر فخر الدولة قبول رأيه.

فلما كانت ليلة الجمعة الرابع والعشرين من صفر سنة

خمس وثمانين وثلاثمائة توفي الصاحب وقد قارب الستين من عمره فاغلقت مدينة الري واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته وحضر فخر الدولة اولاً وسائر القواد وقد غيروا لباسهم فلما خرج نعشه من الباب على اكتاف حامليه للصلاة عليه قام الناس باجمعهم عظاماً وصاحوا صيحة واحدة وقبلوا الارض وخرقوا ثيابهم ولطموا وجوههم وبلغوا في البكاء وانسحب عليه جهدهم وصلى عليه ابو العباس الضبي ومشى فخر الدولة امام الجنازة وقعد للعزاء اياماً وبعد الصلاة عليه علق نعشه بالسلاسل في بيت الى ان نقل الى اصبهان فدفن في قبة هناك تعرف بباب دزية قال ابن خلكان : وهي عامرة الى الآن واولاد بنته يتعاهدونها بالتبييض

وكانت مدة وزارة الصاحب لمؤيد الدولة واخيه فخر الدولة ثماني عشرة سنة وشهوراً ولم يكن له من الاولاد غير بنت واحدة زوجها من ابي الحسين علي بن الحسين الحسني لهما ابي فرزق منها عباد بن علي .

اما فخر الدولة فانه لم يحفظ عهد الصاحب بعد وفاته فقد ورد في ذيل تجارب الامم ان ابا محمد خازن الكتب كان ملازماً

دار الصاحب في مرضه على سبيل الخدمة وهو عين فخر الدولة عليه فلما توفي الصاحب بادر باعلامه الخبر فسد فخر الدولة ثقاته وخواصه حتى احتاطوا على الدار والخزائن ووجدوا كيساً فيه رقاع اقوام بمائة وخمسين الف دينار مودوعة له عندهم فاستدعاهم وطالبهم بالمال فاحضروه وكان فيه ما هو بختم مؤيد الدولة ونقل جميع ما كان في الدار والخزائن الى دار فخر الدولة ثم قبض على اصحاب ابن عباد . وكان الصاحب قد احسن الى القاضي عبد الجبار المعتزلي وقدمه وولاه قضاء الري فلما توفي قال القاضي لا ارى الترحم عليه لانه مات عن غير توبة ظهرت منه فنسب الى قلة الوفاء .

ورثى الصاحب كثير من الشعراء كالشريف الرضي وابي القاسم الاصبهاني وابي سعيد الرستمي وابي الفياض الطبري وابي العباس العلوي الهمذاني وغيرهم ولعل مرثية الشريف الرضي احسن ما قيل فيه لانه ذكر فيها ما امتاز به الصاحب من الصفات وعرض بما فعله فخر الدولة بعد وفاة الصاحب ووصف جزع الناس يوم تشييع جنازته وهذه طائفة منها :

يا طالب المعروف خلق نجسه حط الحمول وعطل الاحمالا

واقم على يأس فقد ذهب الذي ... كان الانام على نسيمه عالا

من كان يقري الجهل علماً ثاقباً ... والنقص فضلاً والرجاء نوالا

ويجبن الشجعان دون لقائه ... يوم الوغى ويشجع السؤالا

يا آمر الاقدار كيف اطعتها ... وما وقاك جلالك الآجالا

كم حجة في الدين خضت غمارها ... هدر الفنيق تخمطاً وصيالا

بسنان رمحك او لسانك موسعاً ... طعناً يشق على العدى وجدالا

ان نكس الاسلام بعدك رأسه ... فلقد ورى بك موئلاً ومآلا

وهاً على الاقلام بعدك نهب ... لم ترض بعد بنان كفك آلا

افقدن منك شجاع كل بلاغة ... ان قال جلى في المقال وجالا

من لو يشاطعن العدى برؤوسها ... رثار من حربها قد طالا

سلطان ملك كنت انت تعزه ... ولرب سلطان عز وجالا

ان المشمر ذيله لك خيفة ... ارخى وحرر بعدك الاذيالا

طلبوا التراث فلم يروا من بعده ... الا سلاً وفضائلاً وجلالا

هيهات فاتهم تراث مخاطر ... حفظ الثناء وضيع الاموالا

قد كان اعرف بالزمان وصرفه ... من ان يثمر او يجمع مالا

مفتاح كل ندى ورب معشر ... كانوا على اموالهم قفالا

كان العزيمة في الانام فاصبحوا ... من بعد غارب نجمه امثالا

من فاعل من بعده كفعاله ... او قائل من بعده ما قالا
سمع يرفع للسؤال سجوفه ... ويحجب الاهزاج والارمالا
يا طالباً من ذا الزمان شبيهه ... هيهات كلفت الزمان محالا
ان الزمان اضن بعد وفاته ... من ان يعيد لمثله شكالا
وارى الكمال جنى عليه لانه ... غرض النوائب من اعير كمالا
طرح الرجال لك العمائم حسرة ... لما رأوك تسير او اجلالا
قالوا وقد فجئوا بنعشك سائراً ... من ميل الجبل العظيم فمالا
وبادروا عط الجيوب وعاجلوا ... عض الانامل يمنة وشمالا
ما شفقوا الا كساك وآلموا ... الا انامل نلن منك سجالا
قد كنت آمل ان اراك فاجتني ... فضلا اذا غيري جنى افضالا
وقيد سمعك منطقي وفطانتي ... وتفندني انامك الاقوالا
واعد منك لريب دهري جنة ... تثني جنود خطوبه فلالا
فطواك دهرك غير طي صيانة ... واعاد اعلام العلى اغفالا

ومر ابو العباس الضبي بباب الصاحب بعد وفاته فقال :

ايها الباب لم علاك اكتئاب ... اين ذاك الحجاب والحجاب
اين من كان يفزع الدهر منه ... فهو اليوم في التراب تراب

ولما استوزر ابو العباس الضبي ولقب بالرئيس وضم اليه ابو

علي ابن حمولة ولقب بالجليل بعد موت الصاحب قال مص بني المنجم :

والله والله لا افلحتم ابداً بعد الوزير ابن عباد بن عباس
ان جاء منكم جليل فاجلبوا اجلي او جاء منكم رئيس فاقطعوا راسي

قال ابو القاسم بن ابي العلاء الشاعر الاصبهاني : رأيت في المنام قائلاً يقول لي . لم لم ترث الصاحب مع فضلك وشعرك ؟ فقلت : الجمتني كثرة محاسنه فلم ادر ايم ابدأ منها وقد خفت ان اقصر وقد ظن بي الاستيفاء فقال . جز ما اقوله فقلت قل فقال :

نوى الجود والكافي معاً في حفيرة

فقلت : ليأنس كل منهما بأخيه

فقال : هما اصطحبا حيين ثم تعانقا

فقلت : ضجيعين في لحد بباب ذريه

فقال : اذا رتحل الثاوون عن مستقرهم

فقلت : اقاما الى يوم القيامة فيه

صفته واخلاقه

الصاحب ابن عبد عبّاد من اعلام القرن الرابع جمع بين الوزارة والكتابة والسيف والقلم وكان صدراً في العلم والادب وغاية في الكرم وجلالة القدر ووفوداً في الرياسة وكثرة الفضائل فمحاسنه تربو كثيراً على زلاته .

هو تلميذ ابن العميد وصنيعته ووزيره في الوزارة واصابع على غرره في السياسة والادب والمربي عنه في الجود والانهة .

يتشابه الوزيران في الادب ومناحيه واساليبه ويختلفان في العلم والاخلاق فابن العميد طويل الباع في الفلسفة وفروعها متمكن من العلوم الدينية راجح العقل قليل الكلام ذو تؤدة وروية في عمله واقواله لا يحب التعاظم واسرح في علمه وعمله . والصاحب عالم في اصول الدين وفروعه يقدم النص على العقل معترف عن الفلسفة وصحابها معجب بنفسه فخور بعلمه وادبه مشهود بمظاهر العظمة والجلال تيّاه على الكبراء والرؤساء حاضر البديهة قوي الحجة شديد المعارضة طلق اللسان محكم الجواب سريع الكتابة كثير

الجدل يتكلم بلسانه واعضائه قال ابو حيان التوحيدي « كان ابو الفضل بن العميد اذا رأى الصاحب قال حسب ان عينيه ركبتا من رائق وسقه عمل بلولب ، وصدق فانه كان ظريف التثني والتلوي شديد التفكك والتفتل كثير التعوج والتموج » وهو مع ذلك مشوه الصورة كما قيل .

قال الثعالبي في يتيمة الدهر : « لست تحضرني عبارة ارضاها للافصاح عن علو محله في العلم والادب ، وجلالة شأنه في الجود والكرم ، وتفرده بعادات المحاسن ، وجمعه شتات المفاخر ، لان همة قولي تنخفض عن بلوغ ادنى فضائله ومعانيه ، وجهد وصفي يقصر عن ايسر فواضله ومساعيه . ولكني اقول هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والاحسان ، ومن لا حرج في مدحه بكل ما يمدح به مخلوق ، ولولاه ما قامت للفضل في دهرنا سوق وكانت ايامه للعلوية والعلماء ، والادباء والشعراء ، وحضرته محط رحالهم ، وموسم فضائلهم ، ومترع آمالهم ، واموالهم مصروفة اليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، وهمته في مجد يشيده ، وانعام يجدده ، وفاضل يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه او يسمعه »

مذهبه

كان عباد والد الصاحب ينصر مذهب الاعتزال وكان ولده الصاحب يتشيع بمذهب ابي حنيفة ومقالة الزيدية يفضل علياً ويرى صحة امامة الخلفاء الثلاثة قبله وله في ذلك كتاب اسمه الامامة في تفضيل علي وتصحيح امامة من تقدمه والصاحب نفسه يقول :

حب علي بن ابي طالب هو الذي يهدي الى الجنه
ان كان تفضيلي له بدعة فلعنة الله على السنه

ونسب اليه صاحب كتاب الفرق بين الفرق هذين البيتين :

دخول النار في حب الوصي وفي تفضيل اولاد النبي
احب اليّ من جنات عدن اخلدها بتيم او عدي

وكتب الصاحب الى الشريف ابي طالب رسالة ورد فيها :

(.. فاني[1] له ومنه ومختلط بالولاء معه ... وقد قال الصادق عليه السلام نحن الاعلون وشيعتنا العلويون وقبله ماروي مولى القوم منهم)

وكان ينتقص معاوية وينال من يزيد قال :

---

(١) المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد ص ٢٢٠ (مخطوط)

ناصب قال لي معاوية خا لك خير الاعمام والاخوال
فهو خال للمؤمنين جميعاً قلت خالي لكن من الخير خالي

قال سهل بن المرزبان كان الصاحب اذا شرب ماء بثلج انشد على أثره :

قعقعة الثلج بماء عذب تستخرج الحمد من اقصى القلب

ثم يقول اللهم جدد اللعن على يزيد .

وكان مثل والده يذهب مذهب المعتزلة في الاصول و يقول بخلق القرآن و ينكر الجبر قال الصاحب :

تعرفت بالعدل[1] في مذهبي ودان بحسن جدلي العراق
فكلفت في الحب مالم اطق فقلت بتكليف مالا يطاق

وقال ايضاً :

كنت دهراً اقول بالاستطاعه وارى الجبر ضلة وشناعه
ففقدت استطاعتي في هوى ظبي فسمعاً للمجبرين وطاعه

ووقع في رقعة لأبي الحسن الشقيق البلخي « من نظر لدينه نظرنا لدنياه ، فان آثرت العدل والتوحيد ، بسطنا لك الفضل والتمهيد ، وان قمت على الجبر ، فليس لكسرك من جبر »

(١) يسمي المعتزلة اهل العدل والتوحيد .

وقال ابو محمد الخازن يمدحه :

كذاك توحيده الوى باربعة كفر وجبر وتشبيه وارجاء

وقال ابو سعيد الرستمي فيه :

فنصبت للاسلام اكرم راية وقصمت اهل الجبر والالحاد

وقال السلامي يهجوه :

يا ابن عباد بن عبا س بن عبد الله حرها
تنكر الجبر واخرجـ ـت الى العالم كرها

وقال قوم من اهل اصبهان للصاحب لو كان القرآن مخلوقاً لجاز ان يموت ولو مات القرآن في آخر شعبان بماذا كنا نصلي التراويح في رمضان ؟ قال لو مات القرآن كان رمضان يموت ايضاً ويقول لا حياة لي بعدك ولا نصلي التراويح ونستريح .

وكان الصاحب يجادل الناس ويدعوهم لمذهبه قال في بعض رسائله ... فقد[1] كان هذا البلد من البلاد المستغلقة على اهل عدل الله وتوحيده ، والتصديق بوعده ووعيده ، هذا وفي فقهائها وفور ، وفي الفضل بها ظهور ، وقد اعان الله على بث كلمة الحق ، وسمع الاكثر على لين ورفق ، وليس تمنعني كثرة

(١) المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد ص ٢٠٥ و ٢٠٦ (مخطوط)

شغلي ، من الانتصاب في بعض ليلي ، للمذاكرة والتبيين ، والتكشف والتخليص فقد صلح خلق كثير والحمد لله رب العالمين)

ومن كتاب له الى اهل الصيمرة (... كنتم بحمد الله ومنه وطوله وفضله ، المشتهرين بالذب عن توحيد الله وعدله ، وصدقه في وعيده ووعده ، كان بلدكم من بين البلاد كغرة ادهم ، وشهاب في ليل مظلم ، وما في النعم أجل موقعاً وهنأ مسرعاً من النعمة في القول بالحق والدعاء اليه والتدين به والبعث عليه ، ومهانة من شبه الله بخلقه فتتسع في جهله ، او جوره في فعله فشك في حسن نظره وطوله ، والحمد لله الذي جمع على كل الصدق آراءنا ، وحمى من مكايد الشيطان هواءنا ، يزيدنا تسديداً وتأييداً ، وتثبيتاً وتمهيداً ، ويوفقنا لصالح الاعمال ، كما وفقنا لصالح الاقوال)

وقال ابو حيان التوحيدي : دخل الناس في مذهب ابن عباد وقالوا بقوله رغبة فيما لديه واجتهد الحسين المتكلم الكلابي ان ينتقل الى مذهبه فقال الحسين دعني ايها الصاحب كون مستجداً لك مما بقي غيري فان دخلت في المذهب لم يبق بين يديك من يسو عليك قبيحه ويبدو للناس عواره فضحك

الصاحب وقال قد عفيناك يا ابا عبدالله وبعد فما يبخل عليك بنار جهنم اصل بها كيف شئت .

وزعم ابو حيان التوحيدي ان الصاحب شديد التعصب على اهل الحكمة والناظرين في اجزائها كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعدد وليس له من الجزء الالهي خبر ولا له فيه عين ولا أثر وانه كان يسب اصحاب الهندسة وانه سمعه يارى يقول : طبع العقل على ان يشهد للباطل كما يشهد للحق ولهذا اختلف العقلاء في جميع امر الدين والدنيا .

وقال صاحب معاهد التنصيص : كان الصاحب يبغض من يميل الى الفلسفة .

وقال ابو حيان التوحيدي في مثالب الوزيرين قال الصاحب : جاءني بعض الحمقى وزعمني في الهندسة فابتدأ فاثبت خمسة وعشرين وخط خطاً ووضع شكلا وطول وزعم انه يعمل برهانا على ذلك فقلت له كنت اعرف ان هذا خمسة وعشرون ضرورة وقد شككت الآن وانا مجتهد حتى اعلم بالاستدلال وهذا هو الخسار

وهكذا فان الصاحب وان كان معتزليا في الاصول فان طريقته العملية في البحث طريقة اهل الحديث الذين يعتدون

بالنص أكثر من سائر الأدلة وذلك لعنايته بالحديث ورويته وسنقف على ذلك عند الكلام على علمه .

كرمه

من أظهر صفات الصاحب الكرم وكثرة البذل واصطناع المعروف فهو مطبوع على السخاء منذ حداثته لأن أمه كانت تعطيه وهو صغير في كل يوم دينارا ودرهما ليتصدق بهما على أول فقير يلقاه في طريقه إلى المسجد الذي كان يدرس به . وهو أكثر بذلا من ابن العميد ولقد مر بك في الصفحة العاشرة من هذه الرسالة أن الصاحب أنكر في نفسه على ابن العميد عدم إكرامه لضيوفه في عشية من عشايا شهر رمضان . على أن جود الصاحب لا يمكن أن يكون كله خالصاً لوجه الله والبر والإحسان فكثير منه كان بدافع حب الذات لأن الجود من أعظم أسباب الشهرة وامتلاك القلوب وتخليد الذكر وامتداد السلطة والصاحب وزير معزى بالعصمة والقوة وحب الأطراء وإشاعة الذكر والإشادة بمروءته وفضائله وما من وسيلة أنجع من الكرم لبلوغ تلك الغاية لذلك فقد عضت عطاياه للشعراء الذين يمدحونه حتى عرض على المتنبي أن يشاطره ماله في سبيل قصيدة يقولها المتنبي فيه .

كان لا يدخل عليه احد في شهر رمضان بعد العصر كائنا من كان فيخرج من داره الا بعد الافطار وكانت داره لا تخلو ليلة من ليالي الشهر من الف نفس مفطرة وكانت صلاته وصدقته ونفقته في هذا الشهر سبع مئة يطلق منها في جميع السنة

وكان يراعي من بغداد والحرمين من شيوخ الكتاب والشعراء واولاد الادباء والزهاد والفقهاء ما يحمله فيهم في كل سنة مع الحاج على مقاديرهم ومراتبهم فكان ينفذ لي ببغداد من ذلك خمسة آلاف دينار في كل سنة تفرق على الفقهاء والادباء وكان يحمل لي اذا استحق له في خمسمائة دينار ولي خلفه هلال الف درهم

قال الوزير ابو سعد منصور بن الحسين الآبي كان ما يخرج الكافي الكفاة في السنة في وجوه البر والصدقات والمبرات وصلات الاشراف واهل العلم والعلماء والزوار ومن يجري مجرى ذلك مما تكلفه ويريد به صيت الذكر واجر الآخرة يزيد على مائة الف دينار .

وقال الثعالبي : حدثني عوف بن الحسين الهمذاني التميمي

قال : كنت يوماً في خزانة خلع للصاحب فرأيت في بيت حسبانات كاتبها وكان صديقي مبلغ عمائم الخز التي صرفت في تلك الشتوية للعلويين والفقهاء والشعراء خاصة غير الخدم والحاشية ثمانماية وعشرين قال : وكان يعجبه الخز ويأمر بالاستكثار منه في داره فنظر ابو القاسم الزعفراني يوماً الى جميع ما فيها من الخدم والحاشية عليهم الخروز الملونة الفاخرة فاعتزل ناحية واحد يكتب شيئاً فسأل الصاحب عنه فقيل له : إنه في مجلس كذا يكتب فقال : علي به فاستمهل الزعفراني ريثما يكمل مكتوبه فأعجله الصاحب وأمر أن يؤخذ ما في يده من الدرج فقام الزعفراني اليه وقال : ايد الله الصاحب

اسمعه ممن قاله تزدد به ... محباً حسن ورد في عصابه

فقال : هات يا أبا القاسم فأنشده ابياتاً منها

سواك بعد الغنى ما اقتنى ... ويأمره الحرص ان يخزنا

وانت ابن عباد المرتجى ... تعد نوالك نيل المنى

وخيرك من باسط كفه ... وممن تباها قريب الجنى

عمرت الورى بصنوف الندى ... فصغر ما ملكوه الغنى

وعادرت شعرهم مفحما وشكرهم عاجز لكنا
ايا من عطاياه تهدي الغنى الى راحتي من نأى او دنا
كسوت المقيمين والزائرين كسيّ لم نخل مثلها ممكنا
وحاشية الدار يمشون في ضروب من الخز الا انا
ولست اذكر لي جارياً على العهد يحسن ان يحسنا

فقال له الصاحب : قرأت في أخبار معن بن زائدة ان رجلاً قال له : احمني ايها الامير فأمر له بفرس وبغلة وحمار وناقة وجارية ثم قال : لو علمت ان الله تعالى خلق مركوبا غير هذه لحملتك عليه . وقد امرنا لك من الخز بجبة وقميص ودراعة وسراويل وعمامة ومنديل ومطرف ورداء وجورب ولو علمنا لباساً آخر يتخذ من الخز لاعطيناكه ثم امر بادخاله الخزانة وصب تلك الخلع عليه وتسليم ما فضل عن لبسه في الوقت الى غلامه .

ومرض الصاحب وهو في الاهواز بالاسهال فكان اذا قام عن الطست ترك الى جانبه عشرة دنانير حتى لا يتبرم به الخدم فكانوا يودون دوام علته ولما عوفي تصدق بنحو من خمسين الف دينار .

مكارم اخلاقه

كان الصاحب على علو مكانته وتعظمه سهل الجانب لاخوانه فانه كان يقول لجلسائه : نحن بالنهار سلطان و بالليل اخوان وقد رويت له حوادث تدل على مكارم اخلاقه وحسن تهذيبه وسعة صدره من ذلك انه استدعى يوماً شراباً من شراب السكر فجيء بقدح منه فلما اراد شربه قال له بعض خواصه : لا تشربه فانه مسموم وكان الغلام الذي ناوله واقفاً فقال للمحذر : وما شاهد على صحة ذلك ؟ قال بان تجربه في الذي ناولك اياه قال : لا استجيز ذلك ولا استحله قال : فجربه في دجاجة قال : ان التمثيل بالحيوان لا يجوز وامر بصب ما في القدح وقال للغلام انصرف عني ولا تدخل داري بعدها وامر برزقه عليه وقال : لا يدفع اليقين بالشك والعقوبة بقطع الرزق نذالة .

لكن هذا الرجل الذي تحرج عن تجريب شراب مشكوك بسمه في دجاجة اقدم على سم علي بن كامة كما روى ذلك صاحب ذيل تجارب الامم وستطلع على تفصيل هذه الحادثة فيما يأتي

ورفع الى الصاحب بعض سهي الاخبار ان رجلاً ممن ينطوي له على غير الجميل يدخل داره في غمار الناس ثم يتلوم على استراق السمع فوقع الصاحب : دارنا هذه خان يدخلها من وفى ومن خان .

وقال ابو منصور البيع دخلت يوماً على الصاحب فطاولته الحديث فلما اردت القيام قلت لعلي طولت فقال لا بل تطولت .

وقال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني كان الصاحب يقسم لي من اقباله واكرامه بجرجان اكثر مما يتلقاني به في سائر البلاد وقد استعفيته يوماً من فرط تحفيه به وتواضعه لي فانشدني لنفسه .

اكرم اخاك بارض مولده وامده من فعلك الحسن
فالعز مطلوب وملتمس واعزه ما نيل في الوطن

ثم قال لي قد فرغت من هذا المعنى في العينية فقلت لعل مولانا يريد قولي :

وشيدت مجدي بين قومي فلم اقل لا ليت قومي يعلمون صنيعي

فقال ما اردت غيره .

وكان الصاحب قد جعل القاضي عبد الجبار قاضي القضاة

بهمدان والجبال فاستقبله يوماً ولم يترجل له وقال له ايها الصاحب اريد ان اترجل للخدمة ولكن لعلم يأتي ذلك وكان يكتب في عنوان كتابه الى الصاحب « داعيه عبد الجبار ابن احمد » ثم كتب « وليه عبد الجبار بن احمد » ثم كتب « عبد الجبار بن احمد » فقال الصاحب لندمائه اظنه يؤول امره الى ان يكتب « الجبار » .

وقال الصاحب : ما قطعني الا شاب بغدادي ورد علينا الى اصبهان فقصدني فاذنت له وكان عليه مرقعة وفي رجليه نعل طاق فنظرت الى حاجبي فقال له وهو يصعد اليّ اخلع نعلك فقال ولم لعلني احتاج اليها بعد ساعة فغلبني الضحك وقلت اتراه يريد ان يصفعني بها .

جلالة قدره

الصاحب من افراد الوزراء الذين علت منزلتهم وعظمت قدرتهم ووقرت مهابتهم في نفوس الناس فانه كان يحب التعاظم والبذخ والخيلاء ولقد مر فيما تقدم من سيرته حوادث تدل على ذلك وفيما يأتي تتمة لما سبق .

كان الرجل مفتوناً بمظاهر الابهة والعظمة فاذا بدا منه

ما يدل على الرفق واللين والمباسطة وانه يرمي من ورائه لزيادة اعجاب الناس به وتعظيمه فلقد روي عنه انه كان يلبس القباء مخففاً بالوزرة والتشبيه معها الى الجندية وهذا نوع من الذهاب بالنفس ظاهره الدماثة وباطنه الزهو

قال ابو النصر بن خواشاده : ما غبطت احداً على منزلة كما غبطت الصاحب ابا القاسم بن عباد فانا كنت مقيمين بظاهر جرجان مع مؤيد الدولة على حرب الخراسانية فدخل الصاحب الى داره في البلد آخر نهار يوم الحضور المجلس الذي يعقده لاهل العلم وتحته دابة زهواء وقد ارسل عنانه فرأيت رجوه الديلم وكابرهم من اولاد الامراء يعدون بين يديه كما تعدو الركابية .

وقال الوزير ابو سعد منصور بن الحسين الآبي : اما امر الوزارة في ايام فخر الدولة فكانت اشهر من ان يحتاج الى ذكرها فان اول وزرائه كان كافي الكفاة واسنة الاقلام وعذبات الالسنة تكل دون السر اوصافه وادنى فضائله فان ابناء الملوك والامراء والقواد وسائر من ساواهم من الزعماء الكبار مثل اولاد مؤيد الدولة و . . . يحضرون باب داره فيقفون على

دوابهم مطرقين لا يتكلم واحد منهم هيبة واعظاماً لموضعه الى ان
يخرج احد خلفاء حجابه فيأذن لبعض اكابرهم ويصرفهم جملة فكان
من يؤذن له في الدخول يظن انه بلغ الآمال ونال الفوز
بالدنيا والآخرة فرحاً ومسرة وشرفاً وتعظيماً فاذا حصل في
الدار واذن له في الدخول الى مجلسه قبل الارض عند وقوع
بصره عليه ثلاث مرات او اربعاً الى ان يقرب منه فيجلس من
كانت رتبته الجلوس الى ان يقضي كل واحد منهم وطره من
خدمته ثم ينصرف بعد ان يقبل الارض ايضاً مراراً ولم يكن
يقوم لاحد من الناس ولا يشير الى القيام ولا يطمع منه
احد في ذلك ونزل بالصيمرة عند عوده من الاهواز فدخل
عليه شيخ من زهاد المعتزلة يعرف بعبد الله بن اسحق فقام له
فلما خرج التفت كافي الكفاة وقال ما قمت لاحد مثل هذا
القيام منذ عشرين سنة وانما فعل ذلك به لزهده فانه كان احد
ابدال دهره . فاما العلم فقد كان يرى من هو اعلم منه فلا يحفل
به . واما هيبته في الصدور ومخافته في القلوب وحشمته عند
الصغير والكبير والبعيد والقريب فقد بلغت الى ان
كان صاحبه فخر الدولة ينقبض عن كثير مما يريده بسببه

ويمسك عن تشره اليه نفسه لمكانه وقد ظهر ذلك للناس بعد موته وانبساط فخر الدولة فيما لم يكن من عادته فعلم انه كان يرم نفسه لحشمته ثم كان يحله محل الوالد اكراماً واعظاماً ويخاطبه بالصاحب شفاهاً وكتاباً . واما اكابر الدولة فكان الواحد اذا رأى احد حجابه بل احد الاصاغر من حاشيته فان فرائصه كانت ترتعد وجوانحه كانت تصطفق الى ان يعلم ما يريده منه ويخاطبه به . وتظلمت اليه امرأة من صاحب لفولاذ بن ماندر وذكرت انه ينازعها في حق لها فما زاد على ان التفت الى فولاذ وكان في موكبه يسير خلفه فبهت وتحير وارتعد ووقف ولم يبرح الى ان سار كافي الكفاة ثم ارسل مع امرأة من ارضاها وازال ظلامتها ومثل هذا كثير . واما اسبابه وحاشيته وهيبته ورتبته فان من يسرها ان كان له عدة من الحجاب منهم من على مربطه ثلاثماية رأس من الدواب او ما يقاربها وكانت جوان بلكا الحاجب تزيد على ذلك زيادة كثيرة .

وقال الوزير ابو سعد ايضاً : كان نصر بن الحسن بن الفيروزان خال فخر الدولة مقداماً شجاعاً قليل المبالاة قد

استعصى على فخر الدولة واقتطع قطعة من بلاده وتغلب عليها
واحتال على جماعة من عسكره فقتلهم بانواع القتل ثم كسر
له عدة عساكر الى ان تكاثرت عساكر فخر الدولة فكسرته
وشتت جموعه وهرب نحو خراسان حتى صار الى سفر بين ثم
بدا له فورد الري ليلة الجمعة لست بقين من شوال سنة ٣٨٤
وقصد في الليل باب كافي الكفاة مستجيراً به ومستعطفاً
له وكنت في هذه الليلة بحضرة كافي الكفاة فأتاه الحاجب
وقد مضى هزيع من الليل فأخبره بوقوف نصر بن الحسن
بن الفيروزان على الباب خاشعاً متضرعاً فرأيته قد تحير في
الامر ساعة ثم راسله بان السلطان الاعظم (يعني فخر الدولة)
ساخط عليك ولا يجوز لي ان آذن لك في دخول داري الا
بعد ان ترضاه وتستعطف قلبه فاذا عفا عنك ورجع لك
فالدار بين يديك وانا معين لك فعاد الحاجب اليه بذلك
ورجع فقال انه امتنع من العود وقال انما جئت الى الصاحب
لائذاً به ومنقطعاً اليه ولا اعرف غيره وهو يحتاج ان يدبر
امري ويجيرني ويحامي عليّ ويذب عني واستمر على الالحاح
في الخضوع والاجتهاد أن يأذن له في الدخول وانتقل من

الباب الكبير الى باب الخاصة وسأل و جتهد

رضاه عن نفسه

أما رضاه عن نفسه فقد ادى به الى الاعجاب والتيه وما مر بك من سيرته يدل على انه كان يذهب بنفسه بعيداً حتى يوردها موارد الغرور ويستحسن من نفسه ما يستقبحه من غيره فانه كان يعيب التيه و يتيه ولا ينصف مناظره وما رواه عنه ابو حيان التوحيدي في هذا الباب هو ادنى الى الرقاعة كقوله « أنا واحد هذا العلم وانت بما تسمع عالم » وكقوله : « كان ابو الفضل — ابن العميد — سيداً ولكن لم يشق غبارنا ولا ادرك شوارنا ولا فتح عذارنا ولا عرف عزارنا لا في علم الدين ولا فيما يرجع الى نفع المسلمين فاما ابنه فقد عرفتم قدره في هذا وفي غيره طياش قلاش ليس عنده الا قش وقماش مثل ابن عياش والهروي الحواش . وولدت والشعرى في طالعي ولولا دقيقة لادركت النبوة ، وقد ادركت النبوة اذ قمت بالذب عنها والنصرة لها فمن ذا يجارينا او يبارينا ويغارينا ويسارينا ويشارينا

وعجب الصاحب نفسه ظاهر في افعاله وشائع في اقواله حتى انه ينبه على من يتغزل به كقوله :

وشدن جماله تقصر عنه صفتي
اهوى لتقبيل يدى قلت لا بل شفتي

وقال ابو حيان « ومع هذا يخدعه - اي الصاحب — الصبي ويخلله الغبي لان المدخل عليه واسع والمأتى اليه سهل وذلك من نقص . مولانا يتقدم بان اعرض شيئاً من كلامه ورسائله مطولة ومختصرة فما حست لارض اليه من فرغانة ومصر وتفليس الا لاستفيد كلامه و فصح به واتعلم البلاغة منه لكأنما رسائل مولانا سور قرآن وفقره فيها آيات فرقان واحتجه من انشائه برهان فسبحان من جمع العلم في واحد وابرز جميع قدرته في شخص . فيلين عند ذلك ويذوب و يلهى عن كل مهم و ينسى كل فريضة عليه ويتقدم الى الخازن بان يخرج اليه رسائله مع الورق والورق و يسهل الامر عليه والوصول اليه والتمكن من مجلسه .

وقال ابو حيان ايضاً: نظر (الصاحب) بالري اليهودي رئس الجالوت في اعتبار القرآن فرجعه اليهودي فيه طويلا ومناقشه

قليلا ونكد عليه حتى احتد وكاد يتقد فلما علم انه قد سحر بنوره (١) واسعط انفه احتال طلباً لمضادته ورفقاً به في مجاملته فقال ايها الصاحب فلم تتقد وتستشيط وتلتهب وتختلط كيف يكون القرآن عندي آية ودلالة ومعجزة من جهة نظمه وتأليفه فان كان النظم والتأليف بديعين وكان البلغاء فيما تدعي عنه عاجزين وله مدعيين وها انا اصدق عن نفسي واقول ما عندي من رسائلك وكلامك وفقرك وما تؤلفه وتبدده به نظماً ونثراً هو فوق ذلك او مثل ذلك وقريب منه وعلى كل حال فليس يظهر لي انه دونه وان ذلك سيستعلي عليه بوجه من وجوه الكلام او بمزية من مراتب البلاغة فلما سمع ابن عباد هذا فتر وخمد وسكن عن حركته وانخمص ورمه به وقال ولا هكذا يا شيخ كلامنا حسن وبليغ وقد اخذ من الجزالة حظاً وافراً ومن البيان نصيباً ظاهراً ولكن القرآن له المزية التي لا تجهل والشرف الذي لا يجمل واين ما خلقه الله على اتم حسن وبهاء مما يخلقه العبد بطلب وتكلف . هذا كله بقوله وقد خبا حميه وتراجع مراحه وصارت ناره رماداً مع اعجاب شديد قد شاع في اعطافه وفرح

---

(١) كذا بالاصل ولعله سحر بنوره .

غالت قد دب في اساريو وجهه .

وقال هلال بن المحسن : وردالى الصاحب رجل من اهل الشام ، فكان فيما استخبره عنه ، رسائل من تقرأ عندكم ؟ فقال رسائل ابن عبد كان ، قال ومن ؟ قال رسائل الصابي ، وعزم احد جلسائه ليقول رسائل الصاحب فلم يفطن فرآه الصاحب فقال تغمز حماراً لا يحسن .

وقال الثعالبي في برد الاكباد : قال الصاحب ابن عباد : كتاب مصر اربعة الاستاذ ابو الفضل يعني بن عميد والاستاذ ابو القاسم يعني عبد العزيز بن يوسف وابو اسحق يعني الصابي ولو شئت لذكرت الرابع « يعني نفسه »

هجاء للعرب وبعض الشعوبية

الصاحب وان كان فارسي الاصل وله غرض في الدين والادب وقد كان حبه للاسلام واطلاعه على علوم الدين وعجابه بادب العرب حاملاً على عصبيته الفارسية لذلك فهو يحب العرب ويبغض الشعوبية من الفرس ومن شعره في هذا المعنى قوله في رجل يتعصب للعجم على العرب ويعيب العرب بأكل الحيات

يا عائب الاعراب من جهله ... لأكلهم لحيات في الطعم

فالعجم طول الليل حياتهم تسلب في الاخت وفي الام

علمت مما تقدم ان الصاحب لم يكن له من الاولاد غير بنت زوجها من الشريف ابي الحسين علي بن الحسين الحسني فلما اتته البشارة بسبطه عباد انشأ يقول

احمد الله لبشرى اقبلت عند العشي
اذ حباني الله سبطاً هو سبط للنبي
مرحباً ثمة اهلاً بغلام هاشمي
نبوي علوي حسني صاحبي

ثم قال

الحمد لله حمداً دائماً ابداً اذ صار سبط رسول الله لي ولدا

ومثل ذلك ما حدث به بديع الزمان الهمذاني عن نفسه قال . كنت عند الصاحب ابن عباد فاتاه رجل بقصيدة يفضل فيها العجم على العرب وهي :

عيبنا بالطبول عن الطلول وعن عبس عذافرة ذمول
واذهلني عفاري عن عفاري ففي است ام لقضاة مع العدول
فلست بتارك ايوان كسرى لتوضح او لحومل فالدخول
وصب بالفلا سبع وذئب بها يعوي وبيت وسط غيل

اذا ذبحوا فذلك يوم عيد ... وان نحروا ففي عرس جليل
يسلون السيوف برأس ضب ... هزائنا بالغداة وبالاصيل
بأية رتبة قدمتموها ... على ذي الاصل والشرف الجليل
الا لو لم يكن للفرس الا ... نجار الصاحب العدل النبيل
لكان لهم بذلك خير عز ... وحيلهم بذلك خير حيل

فلما سمع الى هنا قال له الصاحب قدك ، ثم اشرأب ينظر الى الرؤيا واطراف القوم فلم يرني وكنت في زاوية من زوايا البيت فقال اين ابو الفضل فوثبت وبست الارض بين يديه فقال اجبه عن ثلاثتك ، قلت وما هي ؟ قال ادبك ونسبك ومذهبك فقلت ولا مهلة للقول الا بما تسمع :

اراك على شفا خطر مهول ... بما اودعت نفسك من فضول
طلبت على مكارمنا دليلا ... متى احتاج النهار الى دليل
الينا الصارمين جرى عليهم ... فاي الخزي اقعد بالدليل
متى فرغ المنابر فارسي ... متى عرف الاعز من الحجول
متى علقت وانت بهم زعيم ... اكف الفرس اعراف الخيول
فخرت بملء ما صنعتك فخرا ... على قحطان وبيت الاصيل
وحقك ان تباريني بكسرى ... فما ثور ككسرى في الرعيل

فحرت بنحو ملبوس و كل وذلك فخر ربات الحجول
تفاخرهن في خد اسيل وفرع من مفارقها رسيل
فامجد من ابيك ذا اثرنا غرة كاللبوث و كالنصول

قال : فلما جئته بهذه الابيات نظر الصاحب ابن عباد الى الرجل فقال : كيف ترى ؟ فقال : لو سمعت به ما صدقت؟ قال : فاذن جائزتك ان وجدتك بعدها في مملكتي امرت بضرب عنقك ، ثم قال : لا ترون رجلاً يفضل العجم على العرب الا وفيه عرق من المجوسية يرجع اليها .

وسواء اصح وقوع هذه الحادثة ام كانت ضرباً من مقامات بديع الزمان فانها تصور حب الصاحب للعرب و العربية و بغضه للشعوبية

ما اخذ عليه في اخلاقه وسيرته

حسنات الصاحب كثيرة جداً وما اخذ عليه من الزلات والهنات مروي عن ابي حيان التوحيدي الذي الف كتابا ثلب فيه ابن العميد والصاحب سماه مثالب الوزيرين وابو حيان معروف بالتزيد والوضع والمبالغة لاسيما فيما كتبه على الصاحب فانه تعصب عليه كثيراً وسلبه محاسنه كما يقول ابن خلكان

وذلك بعد ان صحبه فلم يبلغ منه ما كان يرجوه فتركه مغاضباً . وانا انقل هنا بعض ما ذكره ابو حيان من مثالب الصاحب فانها لا تخلو من تفكهة اذ خلت من فائدة

قال ابو حيان : كان الصاحب لا يرجع الى تأله ورقة ورأفة والرحمة والناس كلهم يحجمون عنه لجرأته وسلاطته واقتداره وبطشه . شديد العقاب طفيف الثواب طويل العتاب بذيء اللسان يعطي كثيراً قليلا (يعني يعطي الكثير القليل) مغلوب بحرارة الرأس سريع الغضب بعيد العبثة قريب الطيرة حسود حقود وحسده وقف على اهل الفضل وحقده سار الى اهل الكفاية اما الكتاب والمتصرفون فيخافون سطوته واما المنتجعون فيخافون حقوته وقد قتل خلقاً واهلك ناساً ونفى امة نخوة وبغياً وتجبراً وزهواً ومع هذا يخدعه الصبي ويخلبه الغبي لان المدخل عليه واسع والمأتى اليه سهل

وقال : يعمل الصاحب في اوقات كالعيد والفصل شعراً ويدفعه الى ابي عيسى بن المنجم ويقول له قد نحلتك هذه القصيدة مدحني بها في جملة الشعراء وكن الثالث من المنشدين فيفعل ذلك ابو عيسى وهو بغدادي محنك قد شاخ على الخدائع وتحنث وينشد

فيقول له عند سماعه شعره في نفسه ووصفه بلسانه ومدحه من تحبيره عديا يا عيسى فانك والله مجيد زه يا عيسى قد صفا ذهنك وجادت قريحتك وتنقحت قوافيك ليس هذا من انطراز الاول خير انشدتنا في العيد الماضي ، مجالس تخرج الناس وتهب لهم الذكاء وتزيدهم الفطنة وتحول الكودن عتيقا والمجمر جوادا ثم لا يصرفه عن مجلسه الا بجائزة سنية وعطية هنيئة ويغايظ الجماعة من الشعراء وغيرهم لانهم يعلمون ان يا عيسى لا يقرض مصراعا ولا يزن بيتا ولا يذوق عروضا .

قال يوما من في الدار ؟ فقيل له ابو القاسم الكاتب وابن ثابت فعمل في الحال بيتين وقال لانسان بين يديه اذا اذنت لهذين فادخل بعدهما بساعة وقل قد قلت بيتين فان رسمت لي انشادهما انشدتهما وزعم انك بدهت بهما ولا تجزع من تأففي بك ولا تفزع من تكبري عليك ودفع البيتين اليه وامره بالخروج الى صحن الدار واذن للرجلين حتى وصلا فلما جلسا وانسا دخل الآخر على تهيئتهما ووقف للخدمة واخذ يتلمظ ويري انه يقرض شعرا ثم قال يا مولانا قد حضرني بيتان فان اذنت انشدت قال له انت انسان احرق سخيف لا تقول شيئا فيه خير اكفني امرك

وشعرك قال يا مولانا هي بديهتي وان كسرتني ظلمتني وعلى كل حال فاسمع وان كان بارعين والا فعاملني بما تحب قال انت لجوج هات فانشد :

يا ايها الصاحب تاج العلا لا تجعلني نزهة الشامت
بملحد يكنى ابا قاسم ومجير يعزي الى ثابت

فقال : قاتلك الله لقد احسنت وانت مسيء . قال لي ابو القاسم : وكدت اتفقأ غيظاً لأني علمت انها من فعلاته المعروفة وكان ذلك الجاهل لا يقرض بيتاً ثم حدثني الخادم الحديث بقضه . والذي غلطه في نفسه وحمله على الإعجاب بفضله والاستبداد برأيه اذ لم يجبه قط بتخطئة ولا قول بسوءة لانه نشأ على ان يقال اصاب سيده وصدق مولانا ولله دره ما رأينا مثله من ابن عبد كان مضافاً اليه ومن ابن بوية نقيسه عليه ومن ابرهيم بن العباس الصولي من صريع الغواني من الشجع السلمي اذ سلك طريقهم قد استدرك مولانا على الخليل في العروض وعلى ابي عمرو بن العلاء في اللغة وعلى ابي يوسف في القضاء وعلى الاسكافي في الموازنة وعلى ابن نوبخت في الآراء والديانات وعلى ابن مجاهد في القرآت وعلى ابن جرير في التفسير

وعلى رسطاطاليس في المنطق وعلى الكندي في الجزو وعلى بن سيرين في العبارة وعلى ابي العيناء في البديهة وعلى ابن ابي خالد في الخط وعلى الجاحظ في الحيوان وعلى سهل بن هرون في الفقر وعلى يوحنا في الطب وعلى ابن رين في الفردوس وعلى عيسى بن كلب في الرواية وعلى الواقدي في الحفظ وعلى النجار في البدل وعلى بن ثوابة في التقفية وعلى السري السقطي في الخطرات و وساوس وعلى مزيد في النوادر وعلى ابي الحسن العروضي في استخراج المعمى وعلى بني برمك في الجود وعلى ذي الرئاستين في التدبير وعلى سطيح في الكهانة وعلى ابي المحياة خالد بن سنان في دعوته هو والله اولى بقول ابي شريح اوس بن حجر التميمي في فضالة بن كلدة ابي دبيجة :

الالمعي الذي يظن لك الظ ن كأن قد رأى وقد سمعا
فتراه عند هذا الهذر وشباهه يتلوى و ينتسم ويطير فرحاً به
وينقسم ويقول ولا كذي غرة السبق لهم وقصرنا ان نلحقهم و
نقفو أثرهم وهو في ذلك يتشاجى ويتحايك ويلوي شدقه ويتبلع
ريقه ويردّ كالآخذ ويأخذ كالمتمنع ويغضب في عرض
الرضى و يرضى في لبوس الغضب ويتهالك و يتمالك و يتفائك

ويتمايل ويحاكي المومسات ويخرج في صحاب السماجات وهو مع هذا يظن انه خاف على نقاد الاخلاق وجهابذة الاحوال وقد افسده أيضاً ثقة صاحبه به وتعويله عليه وقلة سماعه من الناصح فيه ..... والله لو ان عجوزاً بلهاء وامة ورهاء قيمت مقامه لكانت الامور على هذا السياق لانه قد امن ان يقال له لم فعلت ولم لم تفعل وهذا باب لا يتفق لاحد من خدم الملوك الا بحد سعيد . ولقد نصح صاحبه الهروي في اموال ثاوية وامور من النظر عارية فقذف بالرقعة اليه حتى عرف ما فيها ثم قتل الرافع خنقاً هذا وهو يدين بالوعيد .

وقال لي الثقة من اصحابه ربما شرع في امر يحكم فيه بالخطأ فيقلبه حده صواباً حتى كأنه عن وحي واسرار الله في خلقه عند الارتفاع والانحطاط جلية ولو جرت الامور على موضوع الرأي وفضيلة العقل لكان معلماً في مصطبة على شارع او في دار لبان فانه يخرج الانسان بتفيهقه وتشادقه واستحقاره واستكباره واعادته وابدائه وهذه اشكال تعجب الصبيان ولا تنفرهم عن المعلمين ويكون فرحهم به سبباً للملازمة والحرص على التعلم والحفظ والرواية والدراسة .

قال ابو حيان: وكان ابن عباد يقول للانسان اذا قدم عليه من أهل العلم يا أخي تكلم وانتأنس واقترح وانبسط ولا تروع وحسبني في خوف مريعة ولا يروعك هذا الحشم والخدم والغاشية والحاشية وهذه المرتبة والمصطبة وهذا الطاق والرواق وهذه المجالس والطنافس فان سلطان العلم فوق سلطان الولاية فليفرخ روعك وليتنعم بالك وقل ما شئت وانصر ما اردت فلست تجد عندنا الا الانصاف والاسعاف والاتحاف والاطراف والمواهبة والمقاربة والمؤانسة والمقاسمة . ومن كان يحفظ ما كان يهدي به في هذا وفي غيره ويجري في هذا الميدان فيطيل حتى اذا استوفى ما عند ذلك الانسان بهذه الزخارف والحيل وسار الرجل معه في جذوره على مذهب ثقة فحاجه وضايقه وسابقه ووضع يده على السكة الفاصلة والامر القاطع تمر له وتعبر عليه ثم قال يا غلام خذ بيد هذا الكلب الى الحبس وضعه فيه بعد ان تصب على كاهله وظهره وجنبيه خمسمائة سوط وعصا فانه معاند ضد يحتاج ان يشد بالقد ساقط هابط كلب وقاح اعجبه صبري وغره حلمي ولقد خلف ظني وعدت على نفسي بالتوبيخ وما خلق الله العصا باطلاً فيقام ذلك البائس

على هذه الحالة وليس الخبر كالعيان من لم يحضر ذلك المجلس لم ير منظراً رفيعاً ورجلاً رقيعاً

وقال ابو حيان حدثني الجرباذقاني الكاتب ابو بكر وكان كاتب داره قال يبلغ من سحنة عين صاحبنا انه لا يسكت عما لا يعرف ولا يسلم نفسه فيما لا يفي به ولا يكمل له ويظن انه ان سكت فطن نقصه وان احتال وموه حاز ذلك وخفي واستتر ولا يعلم ان ذلك الاحتيال طريق الى الاغراء بمعرفة الحال وصدق القائل كاد المريب يقول خذني . وقلت وما الذي حداك على هذه المقدمة ؟ قال قال لي في بعض هذه الايام ارفع حسابك فقد اجرته وقصرت فيه وانتهزت سكوتي وشغلي بامر الملك وسياسة الاولياء والجند والرعايا والمال وما علي من اعباء الدولة وحفظ البيضة ومشارفة الاطراف النائية والدانية باللسان والعلم والرأي والتدبير والبسط والقبض والتتبع والنفض وما على قلبي من الفكر في الاموال الظاهرة والغامضة وهذا باب لعمري مطمع ومساكي عنه مغر بالفساد موقع فبادر عافاك الله الى عمل حسب بتفصيل باب باب يبين فيه امر داري وما دخل عليه امر دخلي وخرجي . قلت له هذا كله بسبب قوله هات حسابك

بما يراعيه ؟ فقال أي والله ولقد كان أكثر من هذا ولقد اختصرته . قال ابو بكر فتفردت اياماً وحررت الحساب على قاعدته واصله والرسم الذي هو معروف بين اهله وحملته اليه فأخذه من يدي وامرّ عينيه فيه من غير تثبت او فحص او مسألة فحدق به اليّ وقال : اهذا حساب ؟ اهذا كتاب ، اهذا تحرير ، اهذا تقرير ، اهذا تفصيل ، هذا تحصيل ، والله لولا اني ربيتك في داري ، وشغلت بتخريجك ليلي ونهاري ، ولك حرمة الصبي ، ويلزمني رعاية الآباء ، لاطعمتك هذا الطومار ، واحرقتك بالنفط والقار ، وأدبت بك كل كاتب وحاسب ، وجعلتك مثلة لكل شاهد وغائب ، امتلي بموه عليه ؟ وتطمع فيما لديه ، وانا حلقت الحسابة والكتابة ، والله ما انام ليلة الا واحصل في نفسي ارتفاع العراق ، ودخل الآفاق ، اعرك مني أني احررت رسمك ؟ واخفيت قبيحك وابديت حسنك ، غيّر هذا الذي رفعت ، واعرف قبل وبعد ما صنعت ، واعلم انك من الآخرة قد رجعت ، فزد في صلاتك وصدقتك ، ولا تعول على فحتك وصلابة حدقتك . قال فوالله ما هالني كلامه ولا احاك فيّ هذيانه لاني كنت أعلم جهله في الحسابة ونقصه في هذا الباب .

فذهبت وافسدت وحرت وقدمت وكابرت وتعمدت ثم رددته اليه فنظر فيه وضحك في وجهي وقال : احسنت بارك الله عليك هكذا اردت وهذا بعينه طلبت لو تغافلت عنك في اول الامر ما تيقظت في ثاني . فهذا كما ترى اعجب منه كيف شئت .

وقال ابو حيان : قال لي علي بن الحسن الكاتب هجرني « الصاحب » في بعض الايام هجراً اضر بي وكشف مستور حالي وذهب على امري ولم اهتد الى وجه حيلة في مصلحتي وورد المهرجان فدخلت عليه في غمار الناس فلما انشد نوبتين تقدمت فانشدت فلم يهش لي ولم ينظر الي وكنت ضمنت بيتي بيتاً له من قصيدة على روي قصيدتي فلما مرّ به البيت هب من كسله ونظر الي كالمنكر علي فطأطأت رأسي وقلت بصوت خفيض لا تلم ولا ترد في القرحة فما علي محمل وانما سرقت هذا من قافيتك لازين به قافيتي وانت بحمد الله تجود بكل علق ثمين وتهب كل در مكنون اتراك تشاحني على هذا القدر وتفضحني في هذا المشهد ؟ فرفع رأسه وصوته وقال : يا بني اعد هذا البيت فاعدته فقال : احسنت يا هذا ارجع الى اول قصيدتك فقد سهونا عنك وطار الفكر بنا الى شأن آخر والدنيا مشغلة وصار ذلك

ظلما بغير قصد منا ولا تعمد . قال فاعدتها وامررتها وفغرت فمي بقوافيها فلما بلغت آخرها قال : أحسنت لزم هذا الفن فانه حسن الديباجة وكأن المحتري استخلفك واكثر بحضرتنا وارتفع بخدمتنا وابذل نفسك في طاعتنا تكن من وراء مصالحك بأداء حقك والجذب بضبعك والزيادة في قدرك على اقرانك . قال فلم ار بعد ذلك الا الخير حتى غزاه ملل آخر فوضعني في الحبس سنة وجمع كتبي فاحرقها بالنار وفيها كتب الفراء والكسائي ومصاحف القرآن واصول كثيرة في الفقه والكلام فلم يميزها من كتب الاوائل وامر بطرح النار فيها من غير تثبت بل لفرط جهله وشدة برقه فهلا طرح النار في خزانته وفيها كتب ابن الراوندي وكلام ابن ابي العوجاء في معارضة القرآن بزعمه وصالح بن عبد القدوس وابي سعيد الحصيري وكتب ارسطاطاليس وغير ذلك ولكن من شاء حمق نفسه .

وقال الصاحب يوماً : صدر قول الشاعر :

والمورد العذب كثير الزحام

فسكتت الجماعة فقال ابن الداري :

يزدحم الناس على بابه

فاقبل عليه بغيظ وقال ما عرفتك الا متعجرفاً جاهلاً ما كان لك بالجماعة اسوة ؟

وعن ابي حيان : لقد بلغ من ركاكته (الصاحب) انه كان عنده ابو طالب العلوي فكان اذا سمع منه كلاماً يسجع فيه وخبراً يسمعه ويرويه يبلق عينيه وينشر منخريه ويرى انه قد لحقه غشي حتى يرش على وجهه ماء الورد فاذا افاق قيل وما اصابك ما عراك ما الذي نالك وتغشاك؟ فيقول ما زال كلام مولاي يراقني ويؤنقني حتى فارقني لبي وزايلني عقلي وانشرحت مفاصلي وتخاذلت عرى قلبي وذهل ذهني وحيل بيني وبين رشدي فيتهلل وجه ابن عباد عند ذلك ويتنفش ويضحك عجباً وجهلاً ثم يأمر له بالحباء والتكرمة ويقدمه على جميع بني ابيه وعمه ومن ينخدع هكذا فهو بالنساء الرعن اشبه وبالصبيان الضعاف امثل .

مرّ بك ان الصاحب تأثم من ان يجرب شراباً مشكوكاً بسمه بدجاجة لان التمثيل بالحيوان غير جائز وانه رغب الى فخر الدولة ان يعفيه من الوزارة للتوفر على امر المعاد ومع ذلك فقد روى الوزير ظهير الدين في كتابه ذيل تجارب الامم ان فخر الدولة لما انتظم له الامر عمل هو والصاحب جميعاً على اخذ علي بن

كامة والاستيلاء على ماله وعمله وعلما انهما لا يقدران عليه لجلالة قدره فعدلا الى اعمال الحيلة في امره واجتمع رأيهما على موافقة شرابي كان له على سمه فتوصلا اليه وقرر امور ذلك واتفق ان علي بن كامة عمل دعوة واحتفل فيها واحتشد وسأل فخر الدولة والصاحب الحضور عنده فوعداه بذلك وراسلا الشرابي بفعل ما تقرر معه في هذا اليوم واعطياه سماً موجباً ودخل علي بن كامة خزانة الشراب يتخير الاشربة ويذوقها فطرح الشرابي السم في بعض ما ذاقه فاحس في الحال باضطراب جسمه فدخل بيتاً وطرح نفسه فيه والقى عليه كساء وعلم فخر الدولة خبره فتأخر عن الحضور

قال الوزير ظهير الدين : وليس العجب من فخر الدولة في سم الرجل كالعجب من الصاحب الذي سأل بالامس في الاذن له في ملازمة داره والتوفر على امر المعاد .

ولا يمكن تفسير ذلك الا بانه احدى الضرورات السياسية التي تتعدى حدود الدين والعدل والانسانية وفي عصرنا من رجال السياسة من يهون عليه سم امة باسرها لا سم فرد منها .

اخبار الصاحب

شعراؤه

لم يجتمع بباب وزير ما اجتمع بباب الصاحب من الشعراء ولم يمدح احد بمقدار ما مدح به من القصائد قال ابن بابك سمعت الصاحب يقول: « مدحت والعلم عند الله بمائة الف قصيدة شعر عربية وفارسية وقد نفقت اموالي على الشعراء والادباء والزوار والقصاد ما سررت بشعر ولا سرني شاعر كما سرني ابو سعيد الرستمي الاصفهاني بقوله :

ورث الوزارة كابراً عن كابر مرفوعة بالاسناد بالاسناد
يروي عن العباس عباد وزا رته واسمعيل عن عباد»

وقال الثعالبي : ... « احتف به من نجوم الارض وافراد العصر وبناء الفضل وفرسان الشعر من يربي عددهم على شعراء الرشيد ولا يقصرون عنهم في الاخذ برقاب القوافي وملك ارق المعاني فانه لم يجتمع بباب احد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحولة الشعراء المذكورين كابي نواس وابي العتاهية والعتابي والنمري ومسلم بن الوليد وابي الشيص ومروان

ابن ابي حفصة ومحمد بن منذر وجمعت حضرة الصاحب باصبهان والري وجرجان مثل ابي الحسن السلامي وابي بكر الخوارزمي وابي طالب المأموني وابي الحسن البديهي وابي سعيد الرستمي وابي القاسم الزعفراني وابي العباس الضبي والقاضي الجرجاني وابي القاسم بن ابي العلاء وابي محمد الخازن وابي هاشم العلوي وابي حسن الجوهري وبني المنجم وابن بابك وابن القاشاني وابي الفضل الهمذاني واسمعيل الشاشي وابي العلاء الاسدي وابي الحسن الغويري وابي دلف الخزرجي وابي حفص الشهرزوري وابي معمر الاسمعيلي وابي الفياض الطبري وغيرهم ممن لم يبلغني ذكرهم وذهب عني اسمه ومدحه مكاتبة الشريف الرضي الموسوي وابو اسحق الصابي وابن حجاج وابن سكرة وابن نباتة »

وقال : حدثني ابو عبد الله محمد بن حامد الحامدي قال عهدي بابي محمد الخازن ماثلا بين يدي الصاحب ينشده قصيدة له فيه ولها :

هذا فؤادك يهيى بين اهواء ... وذاك رأيك شورى بين آراء

هواك بين عيون نحل مقتسم ... داء لعمرك ما اعلاه من داء

لا تستقر بارض او تسير الى ... أخرى بشخص قريب عزمه ناء

يوماً بخزوى ويوماً بالعقيق وبالـ ... ـمذنب يوماً ويوماً بالخليصاء

ونارة تنتحي نجدا وآونة شعب العقيق وطوراً قصر تيماء

قال فرأيت الصاحب مقبلاً عليه بمجامعه حسن الاصغاء الى انشاده مستعيداً اكثر ابياته مظهراً من الاعجاب به والاهتزاز له ما يعجب الحاضرين فلما بلغ الى قوله :

ادعى باسماء تنزا في قبائلها كأن اسماء اضحت بعض اسمائي

اطلعت شعري وبقت شعرها طربا فالفا بين اصباح وامساء

زحف عن دسته طربا فلما بلغ قوله في المدح :

لو ان سحبان باراه لاسجعه على خطابته اذيال فأفاء

ارى الاقاليم قد القت مقالدها اليه مستبقات اي القاء

فساس سبعتها منه باربعة امر ونهي وتثبيت وامضاء

كذاك توحيده الوى باربعة كفر وجبر وتشبيه وارجاء

جعل يحرك رأس مستحسن فلما انشد :

نعم تجنب لا يوم العطاء كما تجنب ابن عطاء لثغة الراء

استعاده وصفق بيديه ولما ختمها بهذه الابيات :

اطري واطرب بالاشعار انشدها احسن بهجة اطرابي واطرائي

ومن منائح مولاتي مدائحه لان من زنده قدحي وبرائي

فخذ اليك ابن عباد مجيرة لا البحتري بدائع ولا الطائي

قال حسبت حسبت ولله انت وتناول النسخة وتشاغل باعارته نظره ثم امر له بخلعة وحملان وصلة ·

وكان من عادة الصاحب ان يقترح على شعرائه نظم في مواضيع بعينها هم في الجد والهزل وفي ذلك من ستحاشة القرائح للنهوض بالادب ما فيه كاقتراحه عليهم وصف الدار التي بناها في اصبهان ووصف الفيل الذي حصل عليه في واقعة جرجان وقد سبقت الاشارة اليهما في موضعهما · ومن المواضيع الهزلية التي اقترح على شعرائه نظمها رثاء برذون ابي عيسى بن المنجم وقد سمى الثعالبي هذه القصائد البرذونيات قال في يتيمة الدهر[1] : لما نفق برذون ابي عيسى بن المنجم باصبهان وكان اصدى قد حمله الصاحب عليه وطالت صحبته له وعز الصاحب الى الندماء المقيمين في جملته ان يعزوا ابا عيسى ويرثوا اصداه فقال كل منهم قصيدة فريدة · ثم نقل قصيدة ابي القاسم الزعفراني وابي الحسن الجرجاني وابي القاسم بن ابي العلاء وابي الحسن السلامي وابي محمد الخازن وابي سعيد الرستمي وابي العباس الضبي وابي دلف الخزرجي وابي محمد محمود وابي عيسى وغيرهم ·

---

(١) - ٣ ص ٥٥

وترى كثيراً من القصائد التي مدح بها في الجزء الثالث من يتيمة الدهر للثعالبي وهو مع ذلك لم يسلم من الهجاء قال ياقوت في معجم الادباء قال بعض الشعراء في ابن سعاد يذم سجعه وخطه وعقله :

متلقب كافي الكفاة وانما هو في الحقيقة كافر الكفار
السجع سجع مهوس والخط خط منقرس والعقل عقل حمار

وقال ابو العلاء الاسدي يهجوه :

اذا رأيت مسجى في مرقعة يأوي المساجد حرا صره بادي
فاعلم بان الفتى المسكين قد قذفت به الخطوب الى لؤم ابن عباد

وقال ابو بكر الخوارزمي :

لا تحمدن ابن عباد وان هطلت كفاه يوماً ولا تذممه ان حرما
فانها خطرات من وساوسه يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما

فلما مات الخوارزمي بلغ الصاحب وفاته فقال :

اقول لركب من خراسان رائح امات خوارزميكم قيل لي نعم
فقلت كتبوا بالحص من فوق قبره الا لعن الرحمن من كفر النعم

الصاحب وابو حيان التوحيدي

مائة الف قصيدة مدح بها الصاحب ومئات من الشعراء[1] يطوفون بسدته مشيدين بفضله ومثلهم من شعراء الاقطار يتغنون بمديحه على بعد الديار ولكن هذا كله لم يرفع من ذكره بمقدار ما وضع من شأنه ابو حيان التوحيدي في كتابه مثالب الوزيرين «ابن العميد والصاحب بن عباد» فان البقية الباقية من هذا الكتاب قرب خلد الصاحب وكسته سنة الدهر وجعلته هزأة واعجوبة في الرقاعة وكانت محنة الصاحب بابي حيان من اسوأ المحن[2]

قال ابو حيان واما حديثي معه يعني مع ابن عباد فانني حين وصلت اليه قال لي ابو من ؟ قلت ابو حيان فقال بلغني انك تتأدب فقلت تأدب اهل الزمان فقال ابو حيان ينصرف اولا

---

(١) قال الصاحب مدحت بمائة الف قصيدة وقال ياقوت في معجم الادباء: مدح الصاحب ابن عباد خمسمائة شاعر من ارباب الدواوين ج ٢ ص ٣١٤

(٢) قال ياقوت في معجم الادباء: كان ابو حيان قصد ابن عباد الى الري فلم يرزق منه فرجع عند ذا ماله وكان ابو حيان مجبولا على الغرام بثلب الكرام ج ٢ ص ٢٨٢

ينصرف قلت ان قبله مولانا لا ينصرف فلما سمع هذا تنمر وكأنه لم يعجبه واقبل على واحد الى جانبه وقال له بالفارسية سفها على ما قيل لي ثم قال الزم دارنا وانسخ هذا الكتاب فقلت انا سامع مطيع ثم اني قلت لبعض الناس في الدار مسترسلا انما توجهت من العراق الى هذا الباب وزاحمت منتجعي هذا الربيع لاتخلص من حرفة الشؤم فان الوراقة لم تكن ببغداد كاسدة فمضى اليه هذا او بعضه وعلى غير وجهه فزاده تنكرا .

قال ابو حيان : طلع ابن عباد عليّ يوماً في داره وانا قاعد في كسر ايوان اكتب شيئاً قد كان كاذني به فلما ابصرته قمت قائماً فصاح بحلق مشقوق اقعد فالوراقون اخس من ان يقوموا لنا فهممت بكلام فقال لي الزعفراني الشاعر اسكت فالرجل رفيع فغلب عليّ الضحك واستحال الغيظ تعجباً من خفته وسخفه لانه كان قد قال هذا وقد نوى شدقه وشنج لفه ومال عنقه واعترض في انتصابه وانتصب في اعتراضه وخرج في فكك مجنون قد افلت من دبر جنون والوصف لا يأتي على كنه هذه الحال لان حقائقها لا تدرك الا باللحظ ولا يؤتى عليها باللفظ

وقال ابو حيان : قال الصاحب يوماً فعلٌ وافعالٌ قليل

وزعم النحويون انه ما جاء الا زيد وارتاد وفرح وفرح وفرد وفراد فقلت له انا احفظ ثلاثين حرفاً كلها فعل وافعال فقال هات يا مدعي فسردت الحروف ودللت على مواضيعها من الكتب ثم قلت ليس للنحوي ان يلزم مثل هذا الحكم الا بعد التبحر والسماع الواسع وليس للتقليد وجه اذا كانت الرواية شائعة والقياس مطرداً وهذا كقولهم فعيل على عشرة اوجه وقد وجدته انا يزيد على اكثر من عشرين وجهاً وما انتهيت في التتبع الى اقصاه . فقال خروجك من دعواك في فعل يدلنا على قيامك في فعيل ولكن لا نأذن لك في اقتصاصك ولا نهب آذاننا لكلامك ولم يف ما اتيت به بجرأتك في مجلسنا وتبسطك في حضرتنا .

وقال ابو حيان قال لي ابن عباد يوماً يا ابا حيان من كناك بابي حيان قلت اجل الناس في زمانه واكرمهم في وقته قال ومن هو ويلك قلت انت قال ومتى كان ذلك قلت حين قلت يا ابا حيان من كناك ابا حيان فاضرب عن هذا الحديث واخذ في غيره على كراهة ظهرت عليه قال وقال لي يوماً آخر وهو قائم في صحن داره والجماعة قيام منهم الزعفراني وكان شيخاً كثير الفضل جيد الشعر ممتع الحديث والتميمي المعروف بسطل وكان من مصر والاقطع

وصالح الوراق وابن ثابت وغيرهم من الكتاب والندماء يا أبا حيان هل تعرف فيمن تقدم من يكنى بهذه الكنية قلت نعم من أقرب ذلك أبو حيان الدارمي حدثنا أبو بكر محمد بن محمد القاضي الدقاق قال حدثنا بن الانباري قال حدثنا أبي قال حدثنا بن ناصح قال دخل ابو الهذيل العلاف على الواثق فقال له الواثق لمن تعرف هذا الشعر :

سباك من هاشم سليل ... ليس الى وصله سبيل
من يتعاط الصفات فيه ... فالقول في وصفه فضول
للحسن في وجهه هلال ... لا عين الخلق لا يزول
وطرة ما يزال فيها ... لنور بدر الدجى مقيل
ما احتال في صحن قصر وس ... الا ليسجى له قتيل
فان يقف فالعيون نصب ... وان تولى فهن حول

فقال ابو الهذيل يا أمير المؤمنين هذا الرجل من اهل البصرة يعرف بابي حيان الدارمي وكان يقول بامامة المفضول وله من كلمة يقول فيها :

افضله والله قدمه على ... صحابته بعد النبي المكرم
بلا بغضة والله مني لغيره ... ولكنه اولاهم بالتقدم

وجماعة من اصحابنا قالوا أنشد ابو قلابة عبد الله بن محمد الرقاشي لابي حيان البصري :

يا صاحبي دعا الملام واقصر ... ترك الهوى يا صاحبي خساره
كم لمت قلبي كي يفيق فقال لي ... لجت يمين مالها كفاره
الا افيق ولا افتر لحظة ... ان انت لم تعشق فانت حجاره
الحب اول ما يكون بنظرة ... وكذا الحريق بداؤه بشراره
يا من احب ولا اسمي باسمها ... اياك عني واسمعي يا جاره

فلما وفيت الشعر ورويت الاسناد وريقي بليل ولساني طلق ووجهي متهلل وقد تكلفت هذا وانا في بقية من عرب الشباب وبعض ريعانه وملأت الدار صياحا بالروية والقافية فحين انتهيت انكوت طرفه وعلمت سوء موقع ما رويت عنده . قال ومن تعرف ايضاً ؟ قلت روى الصولي فيما حدثنا عنه المرزباني ان معاوية لما احتضر انشد يزيد عند رأسه متمثلا .

لو ان حيا نجا لفات ابو ... حيان لا عاجز ولا وكل
الحول القلب لاريب وهل ... يدفع صرف المنية الحيل

قال الصولي وهذا كان من المعمرين المغفلين وانتهى الحديث من غير هشاشة ولا هزة ولا اريحية بل على اكفهرار وجه وتنو

طرف وقلة تقبل . وجرت شيئاً آخر كان عقدها لي فارقت بابه سنة ٣٢٠ راجعاً الى مدينة السلام بغير زاد ولا راحلة ولم يعطني في مدة ثلاث سنين درهماً واحداً ولا ما قيمته درهم واحد حمل هذا على ما اردت ولما نال مني هذا الحرمان الذي قصدني به واحفظني عليه وجعلني من جميع حاشيته فرداً اخذت املاً في ذلك يصدق القول عنه وسوء الثناء عليه والبادئ ظلم وللامور اسباب وللاسباب اسرار والعتب لا يطلع عليه ولا قارع لبابه

وقال ابو حيان : قال لي الصاحب يوماً وهو يحدث عن رجل اعطاه شيئاً فتلكأ في قوله «ولا بد من شيء يعين على الدهر» ثم قال . سألت جماعة عن صدر هذا البيت فما كان عندهم . قلت انا احفظ ذلك ، فنظر بغضب فقال : ما هو؟ قلت نسيت ، فقال ما اسرع ذكرك من نسيانك ، قلت ذكرته والحال سليمة فلما استحال عن السلامة نسيت ، قال وما حيلولتها ؟ قلت نظر الصاحب بغضب فوجب في حسن الادب الا يقال ما يثير الغضب قال ومن تكون حتى تغضب عليك دع هذا وهات . قلت قول الشاعر .

الام على اخذ القليل وعا صادف قوماً أقل من الذر
فان لم آخذ قليلاً حرمته ولابد من شيء يعين على الدهر

فسكت .

قال ابو حيان عند قربه من فراغ كتبه في ثلب ابو زير بن وقد حكى عن ابن عباد حكايات واسندها لي من حبره بها عنه ثم قال . فما ذنبي كرمك الله اذا سألت عنه مشايخ الوقت واعلام العصر فوصفوه بما جمعت لك في هذا المكان على اني قد سترت شيئاً كثيراً من مخازيه اما مرتبة من الاطالة أو صيانة للقلم عن رسم الفواحش وبث القضائح وذكر ما يسمج مسموعه وتكره التحدث به هذا سوى ما فاتني من حديثه وفي صرفه سنة ٣٢٠ . وما ذنبي ان ذكرت عنه ما جرعيه من مرارة الخيبة بعد الامل وحملني عليه من الاحماق بعد الطمع مع الخدمة الطويلة والوعد المتصل والنظر الحسن حتى كأني خصصت بخساسته وحدي او وجب ان اعامل به دون غيري . فسم لي نجاح الخادم وكان ينظر في خزانة كتبه ثلاثين مجلدة من رسائله وقال يقول لك مولانا انسخ هذا فانه قد طلب منه بخراسان فقلت بعد ارتياع : هذا طويل ولكن لو أذن لي لخرجت منه فقراً كالغرر وشذوراً

كالدرر تدور في المجالس كالشمامات والدستويات لو رقي بها
مجنون لأفاق او نفث على ذي عاهة لبرئ لا تمل ولا تستغث ولا
تعاب ولا تسترك . فرفع ذلك اليه وانا لا أعلم فقال طعن في
رسائلي وعليها ورغب عن نسخها وازرى بها والله لينكرن مني
ما عرف وليعرفن خطه اذا انصرف . حتى كأني طعنت في
القرآن أو رميت الكعبة بخرق الحيض أو عقرت ناقة صالح أو
سلحت في بئر زمزم أو قلت كان النظام مأبوناً أو مات أبو هاشم
في بيت حمار أو كان عباد معلم صبيان . وما ذنبي يا قوم اذا لم أستطع
أن أنسخ ثلاثين مجلدة من هذا الذي استحسن هذا الكلب حتى
أعذره في نومي على الامتناع أينسخ انسان هذا القدر وهو يرجو
بعدها أن يمتعه الله ببصره أو ينفعه ببدنه . ثم ما ذنبي اذا قال لي
من أين لك هذا الكلام المفوف المشوف الذي تكتب به الي في
الوقت بعد الوقت ؟ فقلت وكيف لا يكون كما وصف وأنا
أقطف ثمار رسائله واستقي من قليب علمه وأشيم بارقة أدبه وأرد
ساحل بحره واستوكف قطر مزنه . فيقول كذبت وفجرت
لا أم لك ومن أين في كلامي الكذبة والشحذ والتصرع
والاسترحام كلامي في السماء وكلامك في السماء . هذا أيدك الله

وان كان دليلاً على سوء حدي فانه دليل أيضاً على انخلاعه وخرقه وتسرعه ولؤمه

بل ما ذنبي اذا قال لي هل وصلت الى ابن العميد أبي الفتح فأقول نعم رأيته وحضرت مجلسه وشاهدت ما جرى له وكان من حديثه فيما مدح به كذا وكذا وفيما تقدم منه كذا وكذا وفيما تكلفه من تقديم أهل العلم واختصاص أرباب الأدب كذا وكذا ووصل أبا سعيد السيرافي بكذا وكذا ووهب لأبي سليمان المنطقي كذا وكذا فينزوي وجهه وينكر حديثه وينجذب الى شيء آخر ليس مما شرع فيه ولا مما حرك له ثم يقول علم بك لما انتجعته من العراق فاقرأ عليّ رسالتك التي توسلت اليه بها وانتهيت مقرظاً له فيها فتمانع فيأمر ويشدد فاقرأها فيتغير ويذهل . ثم يقال لي من بعد جنيت على نفسك حين ذكرت عدوه عنده بخير وتنبيت عليه وجعلته سيد الناس .

وقال ابو حيان : وكان بن عباد شديد الحسد لمن أحسن القول واجاد اللفظ وكان الصواب عالياً عليه وله رفق في سرد حديث وثيقة في رواية له وله شمائل مخلوطة بالدماثة بين الاشارة والعبارة وهذا شيء عام في البغداديين وكالخاص في غيرهم .

حدثت ليلة بحديث فلم يملك نفسه حتى ضحك واستعاده ثم قيل لي بعده انه كان يقول قاتل الله أبا حيان فانه نكد وانه واله واكره ان اروي ذمي يقلبي وكان ذلك كله حسداً وغيظاً بحتاً.

وحكى ابو حيان قال حضرت مائدة الصاحب ابن عباد فقدمت مضيرة فاعجبت فيها فقال لي يا أبا حيان انها تضر بالمشايخ فقلت ان رأى الصاحب ان يدع التطلب على طعامه فعل فكأنما القمته حجراً وخجل واسخى ولم ينطق الى ان فرغ.

الصاحب والهاشمي الاعمى

كان الصاحب في صغره اذا اراد المضي الى المسجد ليقرأ أعطته أمه ديناراً ودرهماً في كل يوم وقالت له تصدق بهما على اول فقير تلقاه فكان هذا دأبه في شبابه الى ان كبر فصار يقول للفراش كل ليلة اطرح تحت المطرح ديناراً ودرهماً لئلا ينساه فبقي على هذا مدة ثم ان الفراش نسي ليلة من ليالي ان يطرح له الدرهم والدينار فتنبه وصلى وقلب المطرح لم يجد الدرهم والدينار فتفقدهما فتطير من ذلك وظن انه لقرب اجله فقال للفراشين خذوا كل ما هنا من الفرش واعطوه لأول فقير تلقونه حتى

يكون كفارة لتأخير هذا فلقوا عمي هاشمياً على يد امرأة فقالوا ثقل هذا فقال ما هو فقالوا مطرح ديباج ومخاد ديباج فاغمي عليه فاعلموا الصاحب بامره فاحضره ورش عليه ماء فلما أفاق سأله فقال سألوا هذه المرأة ان لم تصدقوني فقالوا له اشرح فقال انا رجل شريف لي ابنة من هذه المرأة خطبها رجل فزوجناه ولي سنتان آخذ القدر الذي يفضل عن قوتنا اشتري لها به جهازاً فلما كان البارحة قالت انها اشتهيت مطرح ديباج ومخاد ديباج فقلت من أين لي ذلك وجرى بيني وبينها خصومة الى ان سألتها ان تأخذ بيدي وتخرجني حتى امضي على وجهي . فلما قال لي هؤلاء هذا الكلام حق لي ان يغشى عليّ . فقال الصاحب لا يكون الديباج الا مع ما يليق به ثم اشترى له جهازاً يليق بذلك المطرح واحضر زوج الصبية ودفع اليه بضاعة سنية[1]

هو ودينار المجوسي

قال ياقوت : حدث الوزير ابو العلاء بن حسولي قال كان دينار المجوسي صدر في ديوان الري وكان مدثرا مدرهما

(١) بغية الوعاة للسيوطي ص ١٩٦

ممولا فكتب رجل الى الصاحب :

لم لا يفرق في ديوان عسكره كافي كفاة لورى دينار دينار
فان ايسر ما في قطع شأفته تطهير ديوانه من عابدي النار

فقبض عليه وصادره واستوفى منه مالاً عظيماً والسبب في ذلك البيتان .

هو ومتشاعر

تحل بعض المتشاعرين بحضرة الصاحب شعراً له وبلغه ذلك فقال ابلغوه عني :

سرقت شعري وغيري يضام فيه ويخدع
فسوف اجزيك صفعاً يكد رأساً واخدع
فسارق المال يقطع وسارق الشعر يصفع

فاتخذ الليل جملا وهرب من الري

علمه وادبه

اراد الصاحب ان يسير على سنن استاذه ابن العميد حذو القذة بالقذة في السياسة والعلم والادب فكان له ما اراد وفوق ما اراد في العلوم الشرعية واللسانية واخطأه التوفيق في علوم الحكمة كما انه قصر عن شأو ابن العميد في المواهب الفطرية كالرفق والكياسة وبعد النظر في امور السياسة

فاق الصاحب استاذه ابن العميد في العلوم الشرعية فقد كان طويل الباع في الحديث فانه سمع الحديث واملى . قال السمعاني في كتاب الانساب : سمع الصاحب الاحاديث من الاصبهانيين والبغداديين والرازيين وحدث وكان يحث على طلب الحديث وكتابته ثم روى عن ابن مردويه انه سمع الصاحب يقول من لم يكتب الحديث لم يجد حلاوة الاسلام .

وقال ابو الحسن علي بن محمد الطبري الكيا : لما عزم الصاحب ابن عباد على الاملاء وهو وزير خرج يوماً متطلساً متحنكاً يري اهل العلم فقال قد علمتم ندمي في العلم فاقروا له بذلك فقال وانا متلبس بهذا الامر وجميع ما انفقته من صغري الى وقتي هذا من

مال ابي وحدي ومع هذا فلا اخلو من تبعات اشهد الله واشهدكم اني تائب الى الله من ذنب ذنبته . واتخذ لنفسه بيتاً وسماه بيت التوبة ولبث اسبوعاً على ذلك ثم اخذ خطوط الفقهاء بصحة توبته ثم خرج فقعد للاملاء وحضر الخلق الكثير وكان المستملي الواحد ينضاف اليه سنة كل يبلغ صاحبه فكتب الناس حتى القاضي عبد الجبار

وكان الصاحب يقول شاركت الطبراني في اسناده ويقال انه نال من البخاري وقال هو حشوي لا يعول عليه وكان يقتبس من الحديث في شعره كقوله :

ومهفهف يغني عن القمر ... قمر الفؤاد يفاتن النظر
خالسته تفاح وجنته ... من غير ابقاء ولا حذر
فاجابني قوم فقلت لهم ... لا قطع في ثمر ولا كثر (١)

وقوله :

قال لي ان رقيبي ... سيء الخلق فداره
قلت دعني وجهك الجنـ ... ـة حفت بالمكاره

---

(١) الكثر بفتحتين جمار النخل وهو شحمه الذي في وسط النخلة . النهاية لابن الأثير .

وقوله :

اقول وقد رأيت له سحابا من الهجران مقبلة الينا

وقد سحت عزاليها بهطل (حوالينا الصدود ولا علينا)

وهدي اليه هدية اهدى منها الى ابي سعيد الشبيبي وكتب معها رقعة مصدرة بهذا البيت :

رويت في السنة المشهورة البركة ان الهدية في الاحوال مشتركة

وكان عالماً بالتوحيد والاصول والف فيهما من ذلك كتاب مختصر اسماء الله تعالى وصفاته وكتاب نهج السبيل في الاصول وكتاب الامامة في تفضيل علي بن ابي طالب وتصحيح امامة من تقدمه وكتاب الزيدية

وكان ذا بصر بالخلاف بين الفرق والائمة قال ابن العماد في شذرات الذهب : قال الصاحب في وصف الائمة الثلاثة المتعاصرين الباقلاني نار محرق وابن فورك صل مطرق والاسفرائيني بحر مغرق قال ابن عساكر كأن روح القدس نفث في روعه بحقيقة حالهم .

وكذلك فقد كانت للصاحب مشاركة في التاريخ ولا بدع فالتاريخ من اعظم عناصر الادب وله فيه مؤلفات ذكرها ياقوت في معجم الادباء وهي كتاب المعارف في التاريخ وكتاب

الوزراء وكتاب اخبار ابي العيناء وكتاب تاريخ الملك واختلاف الدول وكتاب الزيديين .

ما علمه باللغة فربما كان اجل علومه واوسعها فقد الف باللغة كتاب المحيط في عشرة مجلدات وكتاب جوهرة الجمهرة . وهو معدود من الثقات في رواية اللغة وقد جعله الثعالبي احد ائمة اللغة الذين اعتمد عليهم في كتابه فقه اللغة امثال الليث والخليل بن احمد وسيبويه وخلف الاحمر وثعلب والاصمعي وابن الكلبي وابن دريد واشباههم وروى عنه في ذلك الكتاب فصل ترتيب الشرب وباب الحجارة [1] وعده الانباري من علماء اللغة فافرد له ترجمة في كتابه طبقات الادباء النحاة وكذلك السيوطي ترجم له في بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة .

ولقد زين له علمه بغريب اللغة ان يغرب في بعض احاديثه اغرابا يدل على شدة التنطع والتقعر قال ابو حيان التوحيدي قال الخليلي سمعت الصاحب بن عباد يقول للتميمي الشاعر كيف تقول الشعر وان قلت كيف تجيد وان جدت فكيف تعزز وان عززت فكيف تروم غاية وانت لا تعرف ما الزهزيق

---

(١) ص ١٦٨ و ٢٠٥ من فقه اللغة

وما الهلع وما العثلط وما الجلطع وما القهقب وما القهبلس وما الحنسوب وما الخرعبلة وما القدعملة وما العرموط وما الحرقاس وما اللؤومس وما النعثل وما الطريال وما الفرق بين العرم والردم والحدم والحدم والفضم والخضم والنضح والرضح والقضم والقصم والقصع والفصع وما العسقس وما العكنفس وما الوكال والرومل وما الحيتعور والبستعور وما لستعون وما الجردون وما الحبرون وما الفقندر وما الجمعليل قال الشاعر :

جاءت بخف وحنين ورجل جاءت تمشي وهي قدام الابل
مشي الجمعليلة بالخرق النقل

ورأيت بعض الجهال يصحف ويقول « وحنين ورجل » قال ابو حيان قلت للخليلي من عني بهذا قال ابن فارس معلم ابن العميد ابي الفتح قال الخليلي فهذا ضرب من الكلام يجب ان يفتخر بمثله ويتدقق به ؟ انك يا ابا حيان لو رأيته يمشي وهو يهذي بهذا وشبهه ويتفيهق ويلوي شدقيه عليه ويقذف بالبصاق على اهل المجلس لحمدت الله على العافية مما يلي هذا الرجل به .

وبعد ثم بين الشاعر وهذا الضرب الشاعر يطلب لفظاً حراً ومعنى بديعاً ونظماً حلواً وكلمة رشيقة ومثلاً سهلاً ووزناً مقبولاً .

على ان الصاحب لم يكن يستعمل مثل هذا في رسائله أو في شعره بل كان مشهوراً باختيار اللفظ المأنوس السهل على طريقة ابن العميد فاذا صحت رواية ابي حيان كانت على سبيل ادلال الصاحب بمعرفة غريب اللغة ووحشيها

وكان الصاحب ذا قدم راسخة في علم العروض وقد الف فيه كتابين الاقناع في العروض وكتاب نقض العروض .

هذا ومع انه كان مأخوذاً بعلوم العرب وأدبهم ومعروفاً بانحرافه عن الفلسفة والعلوم الدخيلة فان آثاره تدل على ان في ثقافته عنصراً من العلوم الدخيلة التي ترجمت الى العربية فله رسالة في الطب يذكر فيها آراء جالينوس وبقراط ويستعمل كلمة الكيموسات كما أن له رسالة ثانية استعمل فيها كلمة المايخوليا ومن شعره ما كتب به الى ابي الحسين الطبيب مداعباً

انا دعوناك على انبساط ... والجوع قد أثر في الاخلاط
فان عسى مت الى التباطي ... صفعت بالنمل قفا بقراط

وكذلك فقد نوه بحكمة ارسطاطاليس وافلاطون في رسالته الكشف عن مساوئ شعر المتنبي واستعمل بها كلمة ارثماطيقي وموسيقي . قال يتهكم بالمتنبي .. « واحتذى هذا

الفاضل على مثالهم وطرقهم فقال :

وانت ابو الهيجا بن حمدان يا ابنه لشانه مولود كريم ووالد
وحمدان حمدون وحمدان حارث وحارث لقمان ولقمان راشد

وهذه من الحكمة التي دحرها ارسطاطاليس وافلاطن لهذا الخلف الصالح وليس على حسن الاستنباط قياس .

وقال : ومن عيون قصائده التي تحير الافهام وتفوت الاوهام وتجمع من الحساب مالا يدرك بالارثماطيقي وبالاعداد الموضوعة للموسيقى :

احاد ام سداد في احاد لبيلتنا المنوطة بالتناد »

الصاحب في علمه وطريقة تفكيره اقرب الى اهل الظاهر مع انه معتزلي في الاصول لذلك فهو شديد على من خالفه في الرأي في مسائل الدين والأدب . والغريب في امره انه وهو الأديب الكاتب الشاعر — وعمود فن الأديب الذوق — ينكر على المتصوفة ذوقهم ويعتبر كلامهم مفسدة للشعر . قال ينتقد المتنبي : « وكنت اعجب من كلام ابي يزيد البسطامي في المعرفة وألفاظه المعقدة وكلماته المبهمة حتى سمعت قول شاعرنا في صفة الفرس : « سبوح لها منها عليها شواهد » .

وقال : ومن شعره الذي يتباهى به بالسلاسة وخلوه من الشراسة الموجودة في طبعه بيت رقية العقرب اقرب الى الافهام منه وهو

نحن من ضايق الزمان له فيـ ـك وخانته قربك الايام

فان قوله « له فيك » لو وقع في عبارات الجند والشبلي لتنازعته متصوفة دهراً بعيداً . »

وكأن هذا الرأي اصبح صواباً بعد الصاحب حتى قال الثعالبي في يتيمة الدهر . ومن معايب شعر ابي الطيب ومقابحه امتثال الفاظ المتصوفة واستعمال كلماتهم المعقدة ومعانيهم المغلقة . هذا والصاحب فارسي النسب والفرس شعب لقي التصوف في نفوسهم مرعى خصيباً فنبغ منهم اكابر شعراء المتصوفة في الاسلام كجلال الدين الرومي والحافظ الشيرازي

. . . .

الزمن الذي اظل الصاحب والبيئة التي عاش فيها والفطرة التي فطر عليها دلت به اسباب التعمق في العلم والادب

قال في مقدمة رسالته لكشف عن مساوئ شعر المتنبي :

« وها انا منذ عشرين سنة اجالس الشعراء واكاثر الادباء

وباحث الفضلاء ، وعشرين أخرى آخذ عن رواة محمد بن يزيد المبرد وكتب عن اصحاب احمد بن يحيى ثعلب فما رأيت من يعرف الشعر حق معرفته وينقده نقد جهابذته غير الاستاذ الرئيس ابي الفضل ابن العميد »

واجتمع عند الصاحب من الكتب ما لم يجتمع عند غيره فقد كانت خزانة كتبه فريدة وكان يتولاها ابو محمد الخازن الشاعر (١) قال ياقوت في معجم الأدباء (٢) : كان صاحب خراسان الملك نوح بن منصور الساماني قد ارسل الى الصاحب في السر يستدعيه الى حضرته ويرغبه في خدمته وبذل البذول السنية فكان من جملة اعتذاره ان قال كيف يحسن لي مفارقة قوم بهم ارتفع قدري وشاع بين الانام ذكري ثم كيف يحمل اموالي مع كثرة ثقلي وعندي من كتب العلم خاصة ما يحمل على اربعمائة جمل او اكثر .

قال ابو الحسن البيهقي وانا اقول بيت الكتب الذي بالري على ذلك دليل بعد ما احرقه السلطان محمد بن سبكتكين فاني طالعت هذا البيت فوجدت فهرست تلك

(١) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٤٨ (٢) ج ٣ ص ٣١٥

الكتب عشر مجلدات فقال السلطان محموداً لما ورد الى الري قيل له ان هذه الكتب كتب الروافض واهل البدع فاستخرج منها كل ما كان في علم الكلام وامر بحرقه .

وكان الصاحب اذا سافر استصحب معه من كتبه ما يحمل على ثلاثين حملاً فلما وصل اليه كتاب الأغاني لابي الفرج الاصبهاني استغنى به عنها .

وكان اهل العلم والادب يتوسلون الى الصاحب بتقديم مؤلفاتهم اليه ويعتبرون قبوله اياها ورضاه عنها شهادة بجودتها قال ابن فارس في مقدمة كتابه الصاحبي : « هذا الكتاب الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها وانما عنونته بهذا الاسم لاني لما الفته اودعته خزانة الصاحب الجليل كافي الكفاة عمر الله اغراض العلم والادب والخير والعدل بطول عمره تجملا بذلك وتحسناً اذ كان ما يقبله كافي الكفاة من علم وادب مرضياً مقبولاً وما يرذله او ينفيه منفياً مرذولاً ولان احسن ما في كتابنا هذا مأخوذ عنه ومفاد منه

وقال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في خطبة كتابه تهذيب التاريخ : « وهذا كتاب قصدت به غرضي دين ود

اما الدين . . . واما عرض الدنيا فان اقيم بفناء الصاحب الجليل ادام الله بهاء العلم بدوام ايامه من تخلفي في تجديد ذكري بحضرته وتكرير اسمي في مجلسه ومن ينوب عني في مزاحمة خدمته على الاعتراف بحق نعمته وعلمت اني لا استخلف من هو امس به رحماً واقرب منه نسباً وارفع عنده موضعاً والطف منه موقعاً واخص به مدخلاً ومخرجاً واشرف بحضرته مقاماً وموقفاً من العلم الذي يركو عنده غراساً فيضعف رعاً ويحلو طعماً ويطيب عرفاً ويحسن اسماً فاخترت لذلك هذا الكتاب ثقة بوجاهته وعلماً بقرب منزلته وكيف لا يكون عنده وجيهاً مكيناً ومقبولاً قريباً وانما هو نتاج تهذيبه وثمرة تقويمه وجناء تمثيله وربع تحريكه فلولا عنايته لما صدقت النية ولولا ارشاده لما نفذت الفطنة ولولا معونته لما استجمعت الآلة وما يبعد به عن ايثار العلوم وتعظيمها وعن تقديمها وتقريبها وهو الذي نصبه الله لها مثالاً واقامه عليها منارا وجعله لها سنداً ولاحيائها سبباً »

وما ظنك بمن يقتبس ابن فارس والقاضي الجرجاني من علمه وادبه والاول امام في اللغة والادب والثاني من ائمة الدين والادب وهو من ابعد الناس عن المحاباة وهو القائل :

ولم انض حق العلم ان كان كلما بدا طمع صيرته لي سلما

وابو بكر الخوارزمي على جلالة قدره وسعة علمه واعتداده بنفسه يعترف بالاخذ عنه بقوله :

واني والزميك بالشعر بعدما تعلمته منك الندى والفواضلا

كملزم رب الدار اجرة داره ومثلك اعطى من طريقين نائلا

كتبه

الصاحب من اكثر الوزراء تصانيف ولقد فاق استاذه ابن العميد من حيث عدد المؤلفات وهو لم يقتصر على فن بل الف في عدة انواع كالدين والتاريخ واللغة والادب والاخبار ولو سلمت كتبه من الضياع لكانت مجموعة قيمة تضاف الى المكتبة العربية ولكن القسم الاعظم منها مفقود او لا يعلم مكان وجوده وما بقي لا يزال مخطوطاً في دور كتب الشرق والغرب ولم يطبع منها الا رسالة واحدة سيأتي الكلام عليها وفصول من رسائله ومقطعات من شعره مبثوثة في كتب الادب والتراجم على سبيل الاختيار والتمثل والاستشهاد . وهذه اسماء كتبه :

١ — كتاب الوقف والابتدا وهو من اوائل مصنفاته ولعله اولها قال الانباري في طبقات الادباء · يحكى عن الصاحب انه لما صنف كتاب الوقف والابتداء كان في عنفوان شبابه فارسل اليه ابو بكر بن الانباري وقال له انما صنفت كتاب الوقف والابتداء بعد ان نظرت في سبعين كتاباً تتعلق بهذا العلم فكيف صنفت هذا الكتاب مع حداثة سنك فقال الصاحب للرسول · قل للشيخ نظرت في الفيف وسبعين التي نظرت فيها ونظرت في كتابك ايضاً ·

٢ — المحيط في اللغة وهو معجم لغوي ذكر ياقوت في معجم الادباء انه في عشر مجلدات وذكر صاحب كشف الظنون انه في سبعة مجلدات وانه كثير اللفظ قليل الشواهد · وفي فهرس دار الكتب المصرية ان الجزء الثالث منه موجود فيها وهو مخطوط مجزوم واول ما فيه من حرف الفاء وينتهي الى اول حرف الزاي وللمحيط منزلة عظيمة لانه من اقدم المعاجم اللغوية · وهذا مثال منه مأخوذ عن الجزء المحفوظ في دار الكتب المصرية ومنه تتبين طريقة المؤلف في الترتيب :

حرف الدال

باب المضاعف

الدال والراء

ذَرَّ الذَّرُّ صغار النمل والواحدة ذَرَّة ومصدر ذررت الملح على الخبز والدواء اليابس في العين واسم ذلك الدواء الذرور والذُّرَّة ما تناثر من الشيء الذي تذره والذرارة فتات قصب من قصب الطيب والذُّرَّيَّة فُعْلِيَّة من ذررت لان الله ذرّهم في الارض ذرّاً والجميع الذراري ويقال ذرّية وقرئ ذرية من حملنا مع نوح بتخفيف الراء وذرّية وذرّي السيف فرنده والذَّرّي السيف الكثير الماء والذُّرور ذُرور الشمس وهو اول طلوعها وسقوط ضوئها على الارض وذرّ قرن الشمس طلع ورجل ذرذار وثرثار في كثرة الكلام بمعنى وذارت الابل عن الماء ذراراً ومذارّة اذا ابت ان تشربه واذروري بطنه وهو ان يمتد صفاقه وتنحدر سرته .

رَذَّ الرذاذُ مطر كالغبار واحدتها رذاذة ويوم مرذّ وأرذّت السماء ترذّ إرذاذاً وأرذّت العين بمائها اي اسالته وكذلك السقاء

الذال واللام

ذَلَّ الذِلُّ مصدر الذلول ذَلَّ يذِلُّ ذِلاً وهو المنقاد لك من الدواب وذِلُّ الطريق ما وطئ منه . والكرم اذا دنيت عناقيده فقد ذلّل تذليلا وكذلك اذا سويت عذوقه . والذُّلُّ والذِلَّة مصدر الذليل ذَلَّ يذِلُّ والذُّلاَّلُ الذليل والقوم ذِلَّةٌ وأذِلَّةٌ وأذِلاَّءُ ورجل ذَلَوْلِيٌّ حسن الخلق ذميث وجمعه ذلوليون . والذِلْذِل اسفل القميص والقبا ونحوه وهو الذلذل ايضا والجمع الذلاذل . وجاءت الامور على أذلالها اي على وجوهها ومجاريها ودعه على أذلاله اي على حاله وطو الثوب على أذلاله اي على منحره اي عرّه وأذلال من الناس وذلاذل منهم وذُلَيْذِلاتٌ وذُلْذُلاتٌ اي اواخر وقليل من الناس . والتَّذَلْذُل الاضطراب والاسترخاء وذلولى سرع .

لذّ اللذّ واللذيذ في الشراب يلذّه لذاذة واللذات جمع اللذة واللذ النوم والألذّة الذين يأخذون لذتهم واللذلاذ الخفيف السريع .

الذال والنون

ذنَّ ذنَّ الفحل يذنُّ ذنيناً اذا سال من انفه ماء خاثر ورجل أذَنُّ يسيل انفه وهو ذُنان الانف وذَنينه والذُناني الرجل الذي يسيل منه الذُنان والذناء المرأة التي لا ينقطع حيضها ، وخرج لا يزال يذنُّ ، والذُؤنون نبات ينبت امثال العراجين من نبات القطر الواحدة ذؤنونة ، وخرج القوم يتذأنون اي يأخذون الذنين ، والذُنانة الحاجة والطلبة ما ذُنانك وعليه ذنانات من دين اي ذُبابات وذنينة من خير وذُنانة وذنّة اي بقية ، وقطع الله ذانَّ فلان وذنّه اي ما ذنَّ منه وسال من عرقه او من ... والمُذانّة العود في تحز قضاء الحاجة والتردد فيه وقد ذانّته وذنَّ في الامر يذِنُّ والذنادن اسفل القميص كالذلادل واحدها ذندن

٣ - ديوان رسائل الصاحب : ذكر ابو حيان التوحيدي انه كلف ان ينسخ من رسائل الصاحب ثلاثين مجلدة وذكر ياقوت في معجم الادباء ان ديوان رسائل الصاحب عشر مجلدات ومهما يكن

عدد المحدث فان هذا الديوان مفقود ولكن اختار من هذا الديوان الذي سيأتي الكلام عليه بعطيا صورة مصغرة عنه .

٤ — المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد : لم يعلم جامعه وهو صورة مصغرة ولكنها نسخة عن ديوان رسائل الصاحب لان جامعه اختار من جميع ابواب الديوان ولم يترك منها بابا كما ذكر في المقدمة منه نسخة في دار الكتب المصرية مأخوذة بالتصوير الشمسي عن نسخة مخطوطة بخط ابي الحسن علي بن احمد ابن زكريا المعروف بابن الشماص البغدادي فرغ من كتابتها بمحدث في شهر رمضان سنة ٥٥٧ وهي محفوظة بالمكتبة الاهلية في باريس وعدد صفحاتها ٢٢٩ صفحة في كل صفحة ٢٣ سطرا وهي على حسن خطها لا تخلو من بعض الاغلاط ونحن ننقل هنا مقدمة الكتاب لانها بمثابة فهرس له وهي

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكرت اطال الله بقاءك شديد حرصك على تحفظ بعض رسائل الصاحب الجليل كافي الكفاة رضي الله عنه واحتياجك الى من تستعين به على جمع ذلك فهو به مختارا الاشف والاشف

منه فوعدتك القيام لك به وجردت له عنايتي وخرجت من كل باب من ابواب ديوان رسائله العشرين عشر رسالات ليخف حجم هذا المجموع ولا يعتاص تحفظه وقد رجوت ان يقع ذلك منك موضع الوفاق والله ولي التوفيق والارشاد

والباب الاول في البشائر والفتوح ·

والباب الثاني في العهود ·

والباب الثالث في الامان والايمان والموافقات والمناشير ·

والباب الرابع في امر الحجيج والمصالح والثغور

والباب الخامس في الاستعطاف وما يجانسه

والباب السادس في اصلاح ذات البين وتهجين العقوق

والباب السابع في المدح والتعظيم

والباب الثامن في الذم والتهجين وما يجري مجراه

والباب التاسع في التهاني

والباب العاشر في التعازي ·

والباب الحادي عشر في الاحوبيات والمداعبات ·

والباب الثاني عشر في التشكر ·

والباب الثالث عشر في الاستزارة والتقريع ·

والباب الرابع عشر في التنصل والاسترضاء .

والباب الخامس عشر في الشفاعات .

والباب السادس عشر في توصية العمال بتجلب المال واظهار العفاف وحسن السياسة .

والباب السابع عشر في الادب والمواعظ .

والباب الثامن عشر في فصول وغرر وتوقيعات ودرر .

والباب التاسع عشر في الفوارد وهي الكتب النادرة .

والباب العشرون في الشوارد والكتب المختلفة المعاني .

وستطلع على فصول منه في آخر هذه الرسالة . ومن المرجّى ان نشره برمته على حدة

٥ كتاب الكافي في الرسائل : وهو غير ديوان رسائله ويغلب على الظن انه في اصول الكتابة ورسومها وفنون الرسائل ولعله الكتاب الذي عرّفه صاحب كشف الظنون بقوله : رسالة ابن عباد في فنون الكتابة والرسائل رتبها على خمسة عشر باباً وقد وهم المرحوم جرجي زيدان فجعل كتاب الكافي وديوان رسائل الصاحب كتابا واحداً فقال وللصاحب في

الرسائل كتاب الكافي منه منتخبات خطية في مكتبة باريس [1]
مع ان تلك المنتخبات هي مختار من ديوان رسائله كما ذكر من
قبل لا من كتاب الكافي .

٦- الكشف عن مساوئ شعر المتنبي : الباعث للصاحب
على تأليف هذه الرسالة هو ان المتنبي لما زار ابن العميد في رجان
ومدحه طمع الصاحب في ان يمدحه المتنبي ايضاً فكتب اليه
يستدعيه الى اصبهان ويبذل له مشاطرته جميع ماله فلم يجبه
المتنبي على كتابه كبراً ونيهاً لان الصاحب كان في عنفوان
شبابه ولم يستوزر بعد . فاستاء الصاحب والف تلك الرسالة
وتتبع فيها سقطات المتنبي وزلاته وفيها كثير من الغمز واللمز
والتهكم والتحامل واسمها ينبئ عن غاية مؤلفها فانه لم يعمد الى
الحكم في شعر المتنبي جيده ورديئه بل عمد الى اظهار السخيف
دون غيره بطريقة تنم على التشفي والمآخذ التي اخذها الصاحب
على المتنبي واردة في اكثر الاحيان ولكنها لا تعدو انتقاد الالفاظ
والصنعة البديعة وانتظار القصيرة في استكناه روح الشاعر

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٢٧٥

على ان الصاحب كان يأخذ من معاني المتنبي في شعره ونثره كقوله :

لبس برود الوشي لا لتجمل ولكن لصون الحسن بين برود

فانه اغار فيه على قول المتنبي :

لبس الوشي لا متجملات ولكن كي يصن به جمالا

وقوله من رسالة له : « وقد بنى عليه ثناء لسان الزهر على راحة المطر » وهو من قول ابي الطيب

وذكي رائحة الرياض كلامها تبغي ثناء على الحيا فيفوح

وغير ذلك كثير سيأتي في موضعه . ولما لف الصاحب هذه الرسالة الف القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه فجود فيه كثيراً . ورسالة الكشف عن مساوئ شعر المتنبي طبعتها مكتبة القدسي في ست وعشرين صفحة وهي الاثر الوحيد المطبوع على حدة من آثار الصاحب

٧ - الاقناع في العروض : منه نسخة مخطوطة في مكتبة باريس الاهلية مكتوبة سنة ٥٥٩ ونسخة اخرى في دار الكتب المصرية عرفها فهرسها بما يلي « اوله بعد البسملة »

العروض ميزان الشعر به يعرف مكسوره من موزونه الخ ضمن مجموعة مخطوطة بخط قديم» واليك مثالاً منه مأخوذاً عن تلك النسخة:

الطويل له عروض واحدة وثلاثة اضرب واصله فعولن مفاعيلن اربع مرات البيت الاول عروضه مقبوضة والمقبوض ما سقط خامسه الساكن كان اصله مفاعيلن فحذفت ياؤه فبقي مفاعلن وضربه سالم صحيح والسلم ما سلم من الزحاف والصحيح ما صح من الضروب وهو:

انا من	دريكات	عزورن	صحيفتي[1]
فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعلن

ولم ع	طهططو	عمالي	ولا عرضي
فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن

البيت الثاني عروضه مقبوضة وضربه مقبوض وهو:

ستبدي	لك الايا	مما كن	تجاهلا[2]
فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعلن

---

(١) انا عذر كانت عزوراً صحيفتي ولم اعطه بالطوع مالي ولا عرضي

(٢) ستبدي لك الايام ما كنت جاهلا ويأتيك بالاخبار من لم تزود

وبـأتي	كـلاحنا	زمن م	ترودي
فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعلن

البيت الثالث عروضه مقبوضة وضربه محذوف والمحذوف ما سقط من آخره سبب خفيف كان اصله مفاعيلن فحذف من آخره لن فبقي مفاعي فنقل الى فعولن وهو :

اقيموا	بنيعنما	نعنا	صدوركم (١)
فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعلن

والـلا	تقيموا صا	غرين	رؤوسا
فعولن	مفاعلن	فعولن	فعولن

زحافه يجوز في كل فعولن الا التي في ضرب البيت الثالث وهو ستبدي لك الايام ان تسقط نونه ويبقى فعول ويسمى مقبوضاً ويجوز في كل مفاعيلن الا التي في الضرب الاول ان تسقط ياؤه ويبقى مفاعلن ويسمى مقبوضاً وان تسقط نونه ويبقى مفاعيل ويسمى مكفوفاً والمكفوف ما سقط سابعه الساكن وبين ياء مفاعيلن ونونها معاقبة والمعاقبة ان يجوز ثبوت الحرفين معاً ولا يجوز سقوطهما معاً ويجوز في فعولن في ابتداء ابيات الطويل

(١) اقيموا بني تعمل عنا صدوركم والا تقيموا صاغرين رؤوسا

الخرم وهو حذف اول متحرك في اوتد المجموع في اول البيت فاذا خرم فعولن بقي عول فنقل الى فعل ويسمى اثلم فان خرم وقد صار فعول بقي عول فنقل الى فعل وسمى اثرم واذا سلم الجزء من الخرم سمي موفوراً [او] موفور في فعولن خاصة .

بيت المقوص

اتصف من اسود بيشة دوبه ابو مطر وعامر وابو سعد

تقطيعه :

اتطل	بن اسو	دبيش	ثنوبه
فعولن	مفاعلن	فعول	مفاعلن

ابو م	طر نوعا	مر ثو	ابو سعد
فعول	مفاعلن	فعول	مفاعلن

بيت الاثلم المكفوف

شاقتك احداج سليمى بماقل

فعيناك اليمن تجودان بالدمع

تقطيعه

شاقت	كاحداج	سليمى	بماقلن
فعلن	مفاعيل	فعولن	مفاعلن

فعينـ	كللبين	تحود	سددمعي
فعولن	مفاعيل	فعولن	مفاعيلن

بيت الاثرم

هاجك ربع دارس الرسم باللوى لاسماء عفّى آيه المور و القطر

هاج	كربعندا	رسررس	مللوى
فعلن	مفـاعيلن	فعولن	مفاعلن

لاسما	ءعففاا	بهلمو	رولقطر
فعولن	مفاعيلن	فعولن	مفاعيلن

٨ — كتاب الزيدية .

٩ — كتاب الاعياد وفضائل النوروز .

١٠ — كتاب الامامة في تفضيل علي بن ابي طالب وتصحيح امامة من تقدمه .

١١ كتاب الوزراء

١٢ — كتاب عنوان المعارف في التاريخ .

١٣ — كتاب مختصر أسماء الله تعالى وصفاته .

١٤ كتاب العروض الكافي : هكذا سماه ياقوت في معجم الادباء ولعله كتاب الاقناع الذي سبق الكلام عليه .

١٥ — كتاب جوهرة الجمهرة : هو مختصر كتاب الجمهرة لابن دريد والجمهرة من أصول كتب اللغة ودواوينها الفه ابن دريد ببلاد فارس لابني ميكال واتبع في ترتيبه ترتيب كتاب العين للخليل بن احمد وسماه بالجمهرة لانه اختار فيه الجمهور من كلام العرب

١٦ — كتاب نهج السبيل في الاصول

١٧ كتاب [illegible]

١٨ كتاب نقض العروض .

١٩ — كتاب تاريخ الملك واختلاف الدول .

٢٠ كتاب الزيدين

٢١ ديوان لصاحب بن عباد : منه نسخة مخطوطة في مكتبة اياصوفيا بالقسطنطينية وكذلك قصيدتان من شعره في مكتبة برلين

اسلوبه وخصائصه

لم ينقص الصاحب شيء من ادوات الاديب الكسبية فهو عزيز العلم جم الادب واسع الرواية عالي الثقافة حسن المحاضرة قضى حياته في الطلب والمذاكرة والانشاء والتأليف ولكن شدة عنايته بتلك الادوات الكسبية دخلت الضيم على عظم عنصر في ادبه وهو الطبع وما ينتج عنه من التبكير في المعنى واستقلال في الرأي

فحسن اللفظ ومتانة التركيب ورنين الاسجاع وجمال الاستعارة ولطف التشبيه ولباقة التورية ومحكم الاستشهاد وما الى ذلك من ادوات التزويق والخلابة غاية في رأي الصاحب لا واسطة ومن اعتبر الادب كذلك قلت معانيه وان كان فكره مولدا وضعف عمل تفكيره وان كان صحيحا واضطر الى استعارة معاني غيره حتى اذا فتح الله عليه بمعنى جديد ابلاه بكثرة ترديده .

لغة الصاحب لغة عذبة مأنوسة لا غرائب فيها ولا مستكره شأن لغة جمهرة الكتاب في عصره فانهم كانوا يتوخون السهولة

والوضوح في المفردات أكثر من الشعراء ، وأدباء المشرق خاصة ، والمراد بالمشرق بلاد العجم) معروفون بالترقيق قال ابو تمام الطائي :

قد ثقفت منه الشآم وسهلت منه الحجاز ورققته المشرق

فالصاحب على طول باعه في علم اللغة وحفظه غريبها لا تكاد تجد له لفظة وحشية في رسائله وفي شعره وذلك من مقتضيات الصنعة في اختيار الالفاظ ، ولغته في شعره لين منها في نثره وقد يسف في بعض الاحيان حتى يأتي بما يشبه كلام العامة كقوله وان كان فيه لزوم ما لا يلزم

يا ابا القاسم قل لي قل لماذا لا تزور
كنت قد قدمت وعداً فاذا وعدك زور

وهكذا فان شدة حرصه على السهولة توارده احيانا موارد الاسفاف ، وما يروى عنه من الغريب والوحشي الذي كان يمتحن به الطارئين عليه من الادباء محمول على سبيل التحدث بنعمة العلم واظهار البراعة في الحفظ والرواية ولكنه لم يستعمله في نثر او شعر جريا على طريقة استاذه ابن العميد في انتقاء الالفاظ العذبة في الذوق الخفيفة على السمع قال

الصاحب في الكشف عن مساوئ المتنبي : «ما رأيت من يعرف الشعر حق معرفته وينقده نقد جهابذته غير الاستاذ الرئيس ابي الفضل ابن العميد فانه يتجاوز نقد الابيات الى نقد الحروف والكلمات ولا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن» وقال ايضا يعني على ابي الطيب المتنبي استعماله الغريب : «وطم ما يتعاطاه التفاصح بالالفاظ النافرة والكلمات الشاذة حتى كأنه وليد خباء او غذي لبن ولم يطأ الحضر ولم يعرف المدر» .

. . . . .

للصاحب ولوع بالسجع سبق به جميع من تقدمه من الكتاب قال ابو حيان التوحيدي : «كان كلفه بالسجع في الكلام والقلم عند الجد والهزل يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد قلت لابن المسيبي اين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع ؟ قال يبلغ به ذلك لو انه رأى سجعة ينحل بموقعها عروة الملك ويضطرب بها حبل الدولة ويحتاج من حبها الى غرم ثقيل وكلفة صعبة وتجشم امور وركوب اهوال لما كان يخف عليه ان يفرج عنها ويخليها بل يأتي بها ويستعملها

ولا بعيداً بجميع ما وصفت من عاقتها »

وقال ابو الفتح ابن العميد : «خرج ابن عباد من عندنا من الري متوجها الى اصفهان ومنزله ورامين وهي قرية كالمدينة فزوره الى قرية عامرة وما ملح لا شيء الا ليكتب لينا كتابي هذا من الموبهر يوم السبت نصف النهار »

وقال صاحب معاهد التنصيص : عزل لصاحب عاملا ثم فكتب اليه : ايها العامل بقم قد عزلناك فقم .

وقد انتقد ضياء الدين ابن الاثير وهو من المغرمين بالسجع سجع الصاحب لان معانيه كانت تبعا لاسجاعه ي انه كان يبذل المعنى في سبيل السجع قال في المثل السائر : «واعلم ان للسجع سرا هو خلاصته المطلوبه فان عري الكلام المسجوع منه فلا يعتد به اصلا وهذا شيء لم ينبه عليه احد غيري . . . وادي قوله في ذلك هو ان تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذي اشتملت عليه اختها فان كان المعنى فيهما سواء فذلك هو التطويل بعينه وجل كلام الناس المسجوع جار عليه واذا تأملت كتابة المتقدمين ممن تقدم كالصابي وابن

العميد وبن عباد فانك ترى اكثر المسجوع منه كذلك . الى ان قال فمن ذلك (سجع الصاحب) ما ذكره في وصف مهرومين فقال : طاروا واقين بظهورهم صدورهم ، وباصلابهم نحورهم . وكلا المعنيين سواء . ومن كلامه لا تتوجه همته الى اعظم مرقوب الا طاع ودان ، ولا تمتد عزيمته الى فخم مطلوب الا كان واستكان وكل هذا الذي ذكره شيء واحد . وله من كتاب وصل كتابه جامعا من الفوائد اشدها للشكر استحقاقا ، واتمها للحمد استغراقا ، وتعرفت من احسان الله فيما وفره من سلامته ، وهناه من كرامته ، نفس موهوب ومطلوب ، وحمد مرقوب ومخطوب . وهذا كله متماثل المعاني متشابه الالفاظ »

ولم يقف غرام الصاحب بالصنعة عند السجع فحسب بل كان منقادا في اسلوبه الى الصنعة في كل جزء من اجزاء الجملة اعني انه لم يكن يقنع بتسجيع الفواصل بل كان يعنى بالمزاوجة بين اوائل الجملتين واواسطها فيأتي بالكلمة واختها واللفظة ولفقها حتى تكون أجزاء جملتيه سجعاً في سجع كقوله : لكنه عمد للشوق فاجرى جياده غراً وقرحاً ، واورى زناده قدحاً

فقدحا . وقوله : هل من حق الفضل تهضمه شغفاً ببلدتك ، وتظلمه كلفاً باهل جلدتك . وقوله : اطع سلطان النهى دون شيطان الهوى . وقوله : رأي قومه احكمه واشده أشده ، وقريب من ذلك قوله : وقد كتبت الى فلان ما يوجز الطريق الى تخلية نفسه ، وينجز وعد الثقة في فك حبسه . وقوله في استهلال رسالة في تحذير العامة من الخوض في الارجيف : ان الله تعالى مع عظيم حكمته ، وفسيح رحمته ، واستغنائه عن الامم ماضيها وباقيها ، واستعلائه على الخلائق طائعها وعاصيها ، جعل مواهبه فروضاً من الشكر من أقامها ، وعظم مشعرها ومقامها ، ارتبطها عليه ، وثبطها لديه ، ومن اساء جوارها راكباً هواه ، واخفى منارها ناكباً عن منحاه ، ارتجفها منه ، وانتزعها عنه ، وتركه مثلة للناظرين ، وعبرة للمعتبرين ، بذلك جرت سنته في الاولين ، وتقدمت معذرته الى الآخرين [1] .

وهكذا فقد اربى على استاذه ابن العميد كثيراً في التزام احكام الصنعة

كل ما مر بك من مظاهر التزويق والتنميق التي كانت

(١) المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد ص ١٦٥ (مخطوط)

شائعة في كلام الصاحب ، تكن تشفي عليله من الغرام بالصنعة للعطاة فبدا له أن يسن طريقة في التكلف غاية في الغرابة وذلك أنه نظم قصيدة في مدح آل البيت تبلغ سبعين بيتاً معجمة من الالف اولها .

قد صل يجرح في صدري من لبس يعدوه فكري

ثم جعل قصائد كل واحدة خالية من حرف من حروف هجاء فتح الباب لمن اتى بعده من ادباء الصنعة فجاروه زيادة ونقصاً وتفننوا في اللعب على الحروف فنشأ الحريري رسائله السينية والشينية وترك حرف السين في كل كلمة من كلمات الاولى وحرف الشين في كلمات الثانية وأربى عليه من اتى بعده فالتزموا الحروف المهملة في القصيدة من اولها الى آخرها وتشددوا بعضهم فعين من الحروف المهملة عدداً لا يتجاوزه في القصيدة فسمح الله الصاحب وعفا عنه .

ولعل لدي ارجح الى الصاحب هذه الفكرة ما يروى عن واصل بن عطاء رأس المعتزلة من أنه كان يجتنب الراء في كلامه لانه كان يلثغ بها ويحب الناس به واكبروا فصاحته فاحب الصاحب أن يشاطر واصلاً تلك العقدة ويزيد عليه فاجتنب أكثر مما اجتنبه واصل ولكن كان شأن واصل كشأن المريض

الذي يجيد الحمية فيبدو لك صحيحاً وشأن الصاحب كالصحيح الذي يتمارض فيبدو مريضاً .

ولعل ما يروى عن قس بن ساعدة الايادي من أنه أول من قال في خطبه (أما بعد) وحي الى الصاحب أيضاً أن يفتتح بعض رسائله بقوله (أما قبل) لتساهم الاوائل شرف سبقهم أيضاً فلقد كتب الى بعضهم تهنئة بمتجدد نعمة (أما قبل) أطال الله بقاء سيدي فالحمد لله مولى النعم ومسدي المنح منه ابتداء الاحسان واليه مرجع الشكر آخر الزمان وصلى الله على النبي محمد وآله الاخيار وأما بعد فهنأ الله سيدي الموهبة التي ساقها اليه ومدّ رواقها عليه ...)

وقال في موضع آخر (... وبعد او قبل[1] فهذا الشريف حسن الهدى والستر جميل الطريقة والامر ...)

والصاحب مغرم بأنواع البيان يكثر من التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية كقوله : «نحن يا سيدي في مجلس عني الا عنك، شاكر لامنك، قد تفتحت فيه عيون النرجس، وتوردت فيه خدود البنفسج، وفاحت مجامر الاترج، وفتقت فارات النارنج،

(١) المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد ص ٢٠ ، وص ١٨٩

وانطلقت لسنة العيدان، وقام خطباء الاوتار، وهبت رياح الاقداح، ونفقت سوق الانس، وامتدت سماء الند ...» وقد كان هذا النوع من البيان مستحسناً في عصر الصاحب قال ابو بكر الخوارزمي انشدني الصاحب نتفة له منها هذا البيت:

لئن هو لم يكفف عقارب صدغه فقولوا له يسمح بترياق ريقه

واستحسنته جداً حتى حممت من حسدي له عليه ووددت لو أنه لي بالف بيت من شعري.

وله فصل آخر كل جمله شتيهات وهو: نحن وحياتك في مجلس راحه ياقوت ونوره در ونارنجه ذهب وترجسه دينار ودرهم يحملها زبرجد ....»

***

لو ترك الصاحب نفسه على سجيتها أو لو اقتصد في صنعته لرعد الادب باكثر مما رعده لان طبعه فياض وحسه دقيق وذوقه صحيح ردعى ذلك سعة علمه وسمو قدرته لذلك فاجوبته وتواقيعه وكل ما كان يقوله أو يكتبه بدهة على طبيعة مما كان يتكلف بصنعه قال ابو حيان التوحيدي: «كان الصاحب كثير المحفوظ حاضر الجواب فصيح اللسان قد تنف من كل أدب

شيئاً وأخذ من كل فن طرفاً والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة وكتابته بهجنة بطرائقهم ومناظرته مشوبة بعبارة الكتاب وهو شديد التعصب على أهل الحكمة والناظرين في اجزائها كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعدد وليس له من الجزء الآلهي خبر ولا له فيه عين ولا أثر وهو حسن القيام بالعروض والقوافي ويقول الشعر وليس بذاك (١) وبديهته غزارة وأما رويته فجوارة » . وكلامه الذي كان يقوله بداهة واجوبته وتواقيعه تدل على فصاحة ولسن وشدة عارضة مع أن أكثرها لا يخلو من الصنعة التي صارت كالطبع عند الصاحب فمن ذلك ما رواه بديع الزمان الهمذاني قال: لما ادخلني والدي الى الصاحب ووصلت الى مجلسه واصلت الخدمة بتقبيل الارض فقال لي يا بني اقعد كم تسجد كأنك هدهد . وقال ابو منصور البيع دخلت يوماً على الصاحب فطاولته الحديث فلما اردت القيام قلت لعلي طولت فقال لا بل تطولت .

وقال ابو حيان التوحيدي كان ابن عباد ورد الري سنة ٣٥٨ مع مؤيد الدولة وحضر مجلس ابن العميد وجرى بينه

(١) لعل الصواب بذاك

وبين مسكويه كلام ووقع تجاذب فقال مسكويه دعني حتى اتكلم ليس هذا صفة ، اذا اردت ان لا اتكلم فدع على فمي محدة فقال الصاحب بل ادع فمك على المحدة . وطارت النادرة ولصقت وشاعت بين الناس وبقيت .

وقال ابو حسن العلوي الهمذاني الوصي : لما توجهت تلقاء الري في سفارتي اليها من جهة السلطان فكرت في كلام القى به الصاحب فلم يحضرني ما ارضاه وحين استقبلني في العسكر وافضى عناني الى عنانه جرى على لساني : « ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم » فقال « اني لاجد ريح يوسف لولا ان تفندون » . ثم قال مرحبا بالرسول ابن الرسول الوصي ابن الوصي .

وحبس الصاحب بعض عماله في مكان ضيق بجواره ثم صعد السطح يوما فاطلع عليه فرآه فناداه المحبوس باعلى صوته « فاطلع فرآه في سواء الجحيم » فقال الصاحب : « اخسئوا فيها ولا تكلمون »

وقال يوما لبعض من تأخر عن مجلسه لعلة وجدها : ما الذي كنت تشتكيه ؟ قال : الحمى قال انه يعني الحماقة فقال وه يعني القهوة .

وقال بعض ندماء الصاحب : كنت يوماً بين يديه فقدم البطيخ فقلت لا متركَ فقال بالعجلة لمترك وكنت اريد ان اقول لا متركَ للبطيخ فسبقني الى التبادر بهذا التجنيس

واستأذن عليه الحاجب يوماً لانسان طرسوسي فقال الطر في لحيته والسوس في حنطته

وانفذ اليه ابن فارس من همذان كتاب الحجر من تأليفه فقال رد الحجر من حيث جاءك ثم لم تطب نفسه بتركه فنظر فيه وامر له بصلة .

وقال لرجل رفع اليه قصة وهو يكثر الكلام : هذا رفع القصص لا رفع القصص .

ودخل الى الصاحب رجل لا يعرفه فقال له هو من ؟ فانشد الرجل :

ولتفق الاسماء في اللفظ والكنى كثيراً ولكن لا تلاقي الخلائق

فقال له اجلس يا ابا القاسم

قال ابو الرجاء الاهوازي لما قدم علينا الصاحب في السنة التي جاء فيها فخر الدولة الى الاهواز مدحته بقصيدة قلت فيها :

الى ابن عباد أبي القاسم الصـ ـاحب اسماعيل كافي الكفاة

فقال قد كنت والله اشتهي ان تجمع كنيتي واسمي ولقبي واسم ابي في بيت . فلما انتهيت الى قولي فيها : «ويشرب الجيش هنيئاً بها»

قال يا ابا الرجاء امسك فأمسكت فقال :

ويشرب الجيش هنيئاً بهـا من بعد ماء الري ماء الصراة

هكذا هو ؟ قلت نعم ، قال احسنت ، قلت يامولاي احسنت انت ، عملت ذا هذا في ليلة وانت عملته في لحظة .

ودخل عليه رجل فقال له من اين ؟ فقال من بنج ديه وهي بالفارسيه خمس قرى ، فقال له الصاحب يجمق من كان من قرية واحدة فكيف من كان من خمس قرى .

وسأل الصاحب أبا الحسين الربعي عن مسألة فأجاب جواباً اخطأ فيه فقال له اصبت فقبل الارض بين يديه شكراً فلما رفع رأسه قال عين الخطأ .

ورفع الضراعون من دار الضرب اليه رقعة في مظلمة مترجمة بالضربين فوقع تحتها في حديد بارد .

وكتب عامل رقعة اليه في انتهاز شغل وفي الرقعة ان رأي مولانا ان يأمر باشغالي في بعض شغله فقل فوقع تحتها

من كتب لإشغالي لايصلح لأشغالي

وقال العتبي كتب بعض اصحاب الصاحب رقعة اليه في حاجة فوقع فيها ولما ردت اليه لم ير فيها توقيعاً وقد تواترت الاخبار بوقوع التوقيع فيها فعرضها على ابي العباس الضبي فما زال يتصفحها حتى عثر بالتوقيع وهو الف واحدة وكان في الرقعة فان رأى مولانا ان ينعم بكذا فعل فانفت الصاحب امام فعل الفاً يعني افعل .

على انه كان يتفعر بعض الاحيان في احاديثه على سبيل التطرف وما يروى من ذلك مروي عن ابي حيان التوحيدي قال ابو حيان : دخل يوماً دار الامارة الفيرزان المجوسي في شيء خاطبه به فقال له : انما انت محش محش محش لا تهش ولا تبش ولا تمتش فقال الفيرزان ايها الصاحب برئت من النار ان كنت ادري ما تقول ان كان رأيك ان تشتمني فقل ما شئت بعد ان علم فان العرض لك والنفس لك فداء لست من الريح ولا من البربر كلنا على العادة التي عليها العمل والله ما هذا من لغة آبائك الفرس ولا من أهل دينك من أهل السواد وقد خالطنا الناس وما سمعنا منهم هذا النمط .

وقال ابو حيان : سمعته يقول وقد جرى حديث الابهري المتكلم وكان يكنى ابا سعيد فقال : لعن الله ذاك الملعون المأبون المأفون حادي وجه مكلح وانف مفلطح ورأس مسطح وسرم مفتح ولسان مكلح فكلمني في مسألة الاصلح فقلت له اعزب عليك لعنة الله لا برح الذي يبرم ولا يبرح .

وقال ابو حيان : قال ابن عباد لشيخ من خراسان في شيء جرى والله لولا شيء لقطعتك تقطيعاً وبضعتك تبضيعاً ووزعتك توزيعاً ومزعتك تمزيعاً وجزعتك تجزيعاً وادخلتك في حرامك ثم وقف ساعة ثم قال جميعاً .

* * *

بالرغم من كل القيود التي هل الصاحب بها نفسه فان الناظر في آثاره يلمح نفساً حساسة شاعرة تتطلب من وراء الحجب الى جمال الطبيعة في شتى مظاهرها فتطرب لخرير المياه وتعشق لطف الازهار وتأمل لغيرها كما ترتاع لمنظر الثلج وتخشع امام سعة الفضاء في الارض والسماء وما الى ذلك من مظاهر الطبيعة في جلالها وجمالها لذلك فقد اكثر

الصاحب من وصف الرياض والبساتين والازهار والرياحين والاشجار والفواكه والثمار وحول الاجواء والانواء في نثره وشعره كقوله في باكورة خلاف قد نوّر التنوير لخلاف فضائل لا تحصى ، ومحاسن تطول ان تستقصى ، منها انه اول ثغر يبتسم عنه الربيع ويضحك ، ودر يعقد على القضبان ويسبك ، ولتمايله اذكار بقدود الاحباب ، وتهييج سواكن الاطراب ، وحمل اليّ قضيب منه ورداته معتدلة ، ولداته متقابلة ، فأنفذته مع رقعتي هذه اليك ، وسألت الله أن يعيده الف حول عليك ، وقلت :

وقضيب من الخلاف بديع ... مستخص باحسن الترصيع
قد نعى شدة الشتاء علينا ... وسعى في جلاء وجه الربيع
وحكى من احب عرفاً وظرفاً ... واهتزازاً بثير ماء ضلوعي
رقة ما نظمت نحو بديع ... سجد حاكى لربيع حسن صنيع

ولا محل هنا للاستشهاد باكثر من ذلك لأنه سيرد عليك كثير من مثله في الفصل الذي يحتوي على نصوص من كلامه في آخر هذه الرسالة وفيه وصف الشتاء والثلج والفلاة والرياض وما فيها من اشجار وانهار وازهار واطيار

وبفواكه كالعنب والتين والثمار كالاترج والنارنج وما الى ذلك من الأشباه والنظائر

* * *

قد يكون من توضيح الواضح الدلالة على شيوع الروح العربية والثقافة الاسلامية في أدب الصاحب ككثرة الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف وايراد النكات الدالة على معرفة احكام المذاهب والفرق والاستشهاد بامثال العرب والتمثل باشعارهم والاشارة الى اجوادهم وفرسانهم وشعرائهم وخطبائهم فكل ذلك ماثل في كلامه من ذلك العهد (١) الذي كتبه عن مؤيد الدولة الى القاضي عبد الجبار حين ولاه قضاء القضاة فلقد ختم كل فقرة منه باية قرآنية وفي ديوان رسائله كتب (٢) أشبه بمتون في تاريخ أدب العرب وقد مر شيء من ذلك في البحث عن علمه .

ولكن الذي أريد أن انبه اليه هنا هو الاثر الفارسي في أدبه فالرجل وان غلب عليه أدب العرب وشغفه حبهم حتى عد من

---

(١) المختار من ديوان رسائل الصاحب ابن عباد ص ٤٠ و١٤٨ و١٥١ (مخطوط)

اعلام ادبائهم فقد كان يتقبل لقصائد فارسية التي يمدحه بها الشعراء من الفرس ويجيزهم عليها بل كان يمتحن الادباء الطارئين عليه بتعريب الشعر الفارسي .

ذكر الاستاذ براون في تاريخ فارس الادبي ج ١ ص ٤٦٣ نقلا عن محمد العوفي صاحب لب الالباب وجوامع الحكايات ان بديع زمان الهمداني وفد على الصاحب كان ابن اثنتي عشرة سنة فاراد الصاحب ان يمتحن براعته فامره بتعريب ابيات من الشعر الفارسي المنصور بن علي المنطقي فسأله البديع عن البحر والروي اللذين يقترحهما فاقترح البحر السريع والروي ت فعرب البديع تلك الابيات بسرعة غريبة (١) .

ومهما حاول الصاحب ان يجاري العرب في بلاغتهم واساليبهم فان لروح الفارسية لابد من ان تجد منفذاً تنفث منه في شعره ونثره وان كان على الندرة من ذلك تشخيص الجماد وانزاله منزلة العاقل المتكلم كقوله :

أتاني البدر باكياً خجلاً فقلت ماذا دهاك يا قمر

---

(١) لم اجد هذه الابيات في ديوان الصاحب المطبوع في بغداد سنة ١٣٣١ .

قال غزال أتى ليعزلني ... بحسنه والفؤاد مفطر
فقلت قبل تربه عجلاً ... واسجد له قال كل ذا غرر
قد بايعت نجم السماء له ... فليس لي مفزع ولا وزر

ومن ذلك استعمال لعب الفرس كالكرة والصولجان أدوات للتشبيه كقوله :

بعثنا من التاريخ ما طاب عرفه ... فقيل على الاغصان منه نوافح
كرات من العقيان أحكم خرطها ... وأيدي الندامى حولهن صوالح

ومن ذلك قوله وهو بالروح الفارسية اشبه :

لما بدا العارض في الخد ... زاد الذي أبقى من الوجد
وقلت للعذال يا من رأى ... يتفسجاً بطلع من ورد

ومن ذلك تعظيم السلطان وتقديسه كقوله :

لو كان للخلق آلهان ... لكان فخر الدولة الثاني

وكقوله في عضد الدولة :

فوالله ولا الله قال لك الورى ... مقال النصارى في المسيح بن مريم
ولو قلت ان الله لم يخلق الورى ... لغيرك لم أخرج ولم أتأثم

وقوله :

إذا أدناك سلطان فزده ... من التعظيم واحذره وراقب

فما السلطان الا البحر عظما وقرب البحر محذور العواقب

وكقوله من رسالة [1] واذا عزم فقد اوقع ، واذا امر فقد نفذ ، واذا قال فقد ارتسم ، واذا صال فقد انتقم ، ولاة الارض خلفاؤه ، وجنود الاقاليم اولياؤه ، والقدر يخدم امره ، والقضاء يتبع حكمه ، والدهر يمتثل أمره ، والزمان يتقبل أخذه وتركه .... يرتقي مناكب الجبال الرواجح ، حتى يحطمها الى بطون الاباطح .

* * *

قلت في اول هذا الفصل ان من يعتبر الادب اعتبار الصاحب يضطر لاستعارة معاني غيره وتكرير المعنى الذي يفتح عليه به والصاحب نفسه يفتي بسرقة المعاني ولا يرى فيها جناحا قال في الكشف عن مساوئ شعر المتنبي ص ١١ « فاما السرقة فما يعاب بها لاتفاق شعر الجاهلية والاسلام عليها ولكن يعاب ان كان يأخذ من الشعراء المحدثين كالبحتري وغيره جل المعاني ثم يقول لا اعرفهم ولم اسمع بهم ثم ينشد أشعارهم فيقول هذا شعر عليه اثر التوليد » ولم ينفرد الصاحب بهذا الرأي بل سبقه اليه

(١) المختار من ديوان رسائله ص ٢١٨

الادباء والنقاد المتقدمون قال الآمدي في كتاب الموازنة بين ابي تمام والبحتري : « ان من ادركته من اهل العلم بالشعر يكونون يرون سرقات المعنى من كبير مساوئ الشعراء وخاصة المتأخرين اذ كان هذا باباً ما نراهم منه متقدم ولا متأخر »

وايك بعض المعاني التي اخذها من غيره قال يصف اقلاماً : « وتأنقت في بريها فاتت كمناقير الحمام » وهو عكس قول ذي الرمة :

كأن ريوف الطير في عرصاتها خراطيم اقلام تخط وتعجم

وقال : « صدر يطفح بما حمله ، وكل اناء بالذي فيه يرشح » وهو لمثل العربي بعينه « كل اناء بما فيه يرشح » مع تصرف .

وقال في رسالة يعزي بها « دفن بنده بيده ، واهدى نفسه للحده » وهو مأخوذ من قول اعرابي يرثي ابنه :

بني لئن ضمت حفون بمانها لقد قرحت مني عليك جفون

دفنت بكفي بعض نفسي فاصبحت والنفس منها دفن ودفين

وقوله يعزي أيضاً « وفاح فتيت لمسك من مآثره ، كما يفوح من عنبره » ينظر الى قول ابي عبد الرحمن العطوي يرثي احمد بن ابي دواد :

وليس صرير النعش ما تسمعونه ولكنه اصلاب قوم تقصف
وليس نسيم المسك ما تجدونه ولكنه ذاك الثناء مخلف

وقوله « قد ورث الشرف جامعاً عن جامع ، وشهد له نداء الصوامع » مأخوذ من قول علي بن محمد العلوي :

لقد فاخرتنا من قريش عصابة بمط خدود وامتداد اصابع
فلما تنازعنا القضاء قضى لنا عليهم بما يهوى نداء الصوامع

وقوله « انت حدين فكري وسميره ، وامين قلبي واميره ، تصرفه كيف احببت ، وتنقله كيف طلبت ، وتسلمه لتناوب البر والجفاء ، وتتلاعب به كتلاعب الافعال بالاسماء » مأخوذ من قول ابي تمام الطائي في الخمر :

خرقاء يلعب بالعقول حبابها كتلاعب الافعال بالاسماء

وقال في الخمر « فلما دبت الكؤوس فيهم دبيب البرء في السقم ، والنار في الفحم » فالسجعة الاولى مأخوذة من قول ابي نواس في الخمر :

فتمشت في مفاصلهم كتمشي البرء في السقم

والسجعة الثانية من قول بعض شعراء هذيل يصف قانصاً ظفر بصيد بسرعة المشي :

فتمشى لا يحس به كتمشي النار في الضرم

وقال أبو الفضل الميكالي سرق الصاحب قوله :

لئن هو لم يكفف عقارب صدغه فقولوا له يسمح بترياق ريقه

من قول القائل :

لدغت عينك قلبي بما عينك عقرب

لكن المصة من ريـ ـقك ترياق مجرب

وقال الثعالبي معنى قول الصاحب في الثلج :

وكأن السماء صهرت الار ض فكان النثار من كافور

ينظر الى قول ابن المعتز :

وكأن الربيع يجلو عروساً وكأنا من قطره في نثار

وقول الصاحب :

يقولون لي كم عهد عينك بالكرى فقلت لهم مذ غاب بدر دجاها

ولو تلتقي عين على غير دمعة لصارمتها حتى يقال لفاها

مأخوذ من قول مهلبي الوزير :

تصارمت الاجفان منذ صرمتني فما تلتقي الا على عبرة تجري

وقول الصاحب :

هات مشطاً اليّ وليك عاجاً فهو ادنى الى مشيب الرؤوس

وإذا ما مشطت عاجاً بعاج فامشط الآبنوس بالآبنوس

مأخوذ من قول ابي عثمان الخالدي :

ورأتني مشطت عاجاً بعاج فامشط الآبنوس بالآبنوس

واخذ قوله في ابن العميد :

الى سيد لولاه كان زماننا وأبناؤه لفظاً عرياً عن المعنى

من قول المتنبي :

(والدهر لفظ وانت معناه)

وقوله

فقلت لا تنكر وكن عذيري كم صارم جرّب في خنزير

من قول الحمدوني :

(هوني امرءاً جربت سيفي على كلب)

وقوله :

والله لا راجعته ولو به كالشمس أو كالبدر أو كنويه

مأخوذ من قول ابن المعتز :

والله لا كلمته ولو به كالشمس أو كالبدر أو كالمكتفي

وعقد الثعالبي في الجزء الاول من يتيمة الدهر فصلا عنونه « قطعة من حل الصاحب وغيره نظم المتنبي واستعانتهم بالفاظه

ومعانيه في الترسل » جاء فيه مما يتعلق بالصاحب :

فصل له من رسالة في وصف قلعة افتتحها عضد الدولة :

واما قلعة كذا فقد كانت بقية الدهر المديد ، والامد البعيد ، تعطس بأنف شامخ من المنعة ، وتلبو بعطف جامح على الخطبة ، وترى أن الأيام قد صالحتها على الاعفاء من القوارع ، وعاهدتها على التسليم من الحوادث ، فلما أتاح الله للدنيا أن تجدها ، وأنا بأسها وتحسبها ، جهلوا بون ما بين البحور والانهار ، وظنوا الاقدار تأتيهم على مقدار ، فما لبثوا ان رأوا معقلهم الحصين ومثواهم القديم نهزة الحوادث وفرصة السوابق ، ومجر العوالي ومجرى السوابق

وعلم بالفاظ بيتين لأبي الطيب أحدهما :

حتى أتى الدنيا من نجدتها فشكا اليه السهل والجبل

والآخر :

تذكرت ما بين العذيب وبارق مجر عوالينا ومجرى السوابق

وفصل له : لئن كان الفتح جليل الخطر ، حميد الأثر ، فان سعادة مولانا لتبشر بشوافع له يعلم معها ان لله اسراراً في علاه لا يزال يبديها ، ويصل اوائلها بتواليها

وهو من قول أبي الطيب :

ولله سر في علاك وإنما كلام العدى ضرب من الهذيان

(فصل) ولو كان ما احسنه شطية من قلم كاتب لما غيرت خطه ، او قذى في عين نائم لما انتبه جفنه . وهو من قول ابي الطيب :

ولو قلم القيت في شق رأسه من السقم ما غيرت من خط كاتب

(فصل للصاحب في التعزية) اذا كان الشيخ القدوة في العلم وما يقتضيه ، والاسوة في الدين وما يجب فيه ، لزم ان يتأدب في حالات الصبر والشكر بأدبه ، ويؤخذ في ثارات الأسى والأسى بمذهبه ، فكيف لنا بتعزيته ، عند حادث رزيته ، الا اذا رويت له ، بعض ما اخذنا عنه ، واعدنا اليه ، طائفة مما استفدنا منه . وانما هو حل من قول أبي الطيب :

انت يا فوق ان يعزى عن الاحـ ـباب فوق الذي يعزيك عقلا

وبألفاظك اهتدى فاذا عزـ ـك قال الذي له قلت قبلا

(وفصل له) وقد اثنى عليه ثناء لسان الزهر ، على راحة المطر . وهو من قول ابي الطيب :

وذكي رائحة الرياض كلامها تبغي الثناء على الحيا فيفوح

ومن معانيه التي كررها قوله :

انت نذل من كرام انت في الطاوس رحله

كرره فقال :

وان اباك ذ تعزى اليه لكالطاوس يقبح منه رحله

وقوله :

وشادن أصبح فوق الصفة قد ظلم الصب وما انصفه

كم قلت اذ قبل كفي وقد تيمني يا ليت كفي شفه

كرره فقال

ابا شجاع يا شجاع الورى ومن غدا في حسنه قبله

قبل فمي ان كنت لي مؤثراً فاليد لا تعرف القبله

وقال أيضاً في هذا المعنى

وشادن جماله تقصر عنه صفتي

هوى لتقبيل يدي فقلت لا بل شفتي

* * *

تقدم في سيرة الصاحب ان فخر الدولة مرح معه مرة فبدت آثار الكراهة على وجهه فلم يعد بعدها فخر الدولة لمزاحه بل كان

ينتقل من مجلس الانس الى مجلس الحشمة اذا دخل عليه الصاحب . ومع ذلك فقد كان صاحب تمازح اصحابه الذين ينبسط اليهم ويرسلهم بانواع الهزل والدعابة وربما استرسل بالفكاهة الى حد المجون . فكأنه كان يعتبر الدعابة ضرباً من التهكم والعبث واستدر لذلك فله ان يمازح غيره (يعبث به ويتنادر عليه ويضحك منه) وليس لاحد ان يمازحه ولو كان سيده فخر الدولة وهذا لون آخر من عجب الصاحب بنفسه وعدم انصافه غيره فقد روى عنه انه كان يعيب التيه ويتيه فانظر كيف كان يُصَّ بعيب المزاح والمزح . قال في احد شعر الهاني الحسن البديهي :

يقول البيت في خمسين عاماً ... فلم لقنت نفسك بالبديهي

وقال يداعب بعض اخوانه :

قلبي على الخمرة يا ابا العلا ... فهل فتحت الموضع المقفلا
وهل فككت الختم عن كيسه ... وهل كحلت الناظر الاكحلا
انك ان قلت نعم صادقاً ... ابعث نثاراً يملأ المنزلا
وان تجنبي من حساء بلا ... بعث اليك القطن والمغزلا

وكتب مداعباً .

خبر سيدي عندي وان كتمه عني، وستأثر به دوني، وقد عرفت خبره البارحة في شربه وانسه، وغناء الضيف الطارق وعرسه، « وكان ما كان مما لست ذكره » وجرى ما جرى مما لست نشره، واقول ان مولاي مطي الاشهب فكيف وجد ظهره، وركب الطيار فكيف شاهد جريه، وهل سلم على حزونة الطريق، وكيف تصرف في سعة ام ضيق، وهل افرد الحج ام تمتع بالعمرة، وقال في الجملة بالنكرة، ليتفضل بتعريفي الخبر فما ينفعه الانكار، ولا يغني عنه الا الاقرار، وارجو ان يساعدنا الشيخ ابو مرة، كما ساعده مرة، فيصلي للقبلة التي صلى اليها، ويتمكن من الدرجة التي خطب عليها، هذا وله فضل السبق الى ذلك الميدان، الكثير الفرسان .

وكان الصاحب مع جلالة قدره وسمو مكانته وتبحره بعلوم الدين ورواية الحديث لا يحجم عن الهجاء الفاحش ولا يتأثم من الاقذاع فيه وقد روى له الثعالبي في يتيمة الدهر اشياء من فاحش الهجاء لا سبيل لنقل شيء منها في مثل هذه الرسالة وجريرة ذلك ليست على الصاحب وحده بل على العصر الذي كان اهله لا يتحرجون من الاقذاع في الهجاء .

شعره

قلّ في ادباء العربية من جمع بين الشعر والنثر وجوّد فيهما . ومع ذلك فلا تكاد تجد عالماً أو اديباً لا يشارك الشعراء في صنعتهم والكتاب بجملتهم يعنون قرض الشعر بين مكثر ومقل ومسهب وموجز .

البواعث التي تغري الكتاب بقول الشعر (عدا الطبع والتطرف والاستزادة من فنون الادب) هي الكسب والوسيلة اذ قد جرت العادة في ادبنا ان يختص الشعر بالمدح والرثاء والهجاء لذلك فقد كان الكاتب اذا نجح ملكاً او وزيراً او رئيساً قدم بين يدي حاجته قصيدة يمدحه بها تكون ذريعة له ولو لم تكن صنعته الشعر . فلقد روي عن الجاحظ انه مدح بقصيدة واحدة غير واحد من الاعيان لان الجاحظ غير مطبوع على الشعر وكتاب القرن الرابع الذي عاش فيه الصاحب عانوا نظم الشعر واكثروا من قوله كابن العميد وابي بكر الخوارزمي وابي اسحاق الصابي وبديع الزمان الهمذاني الذي خلف لنا مع مقاماته ورسائله ديوانا من الشعر . والصاحب نفسه مكثر من

قول الشعر وله ديوان تقدم الكلام عليه وفي كتب الادب طائفة صالحة من اشعاره يستشهد بها اللغويون في شتى الفنون وقد مدح الصاحب في اول امره بن العميد وعضد الدولة وتداول جميع انواع الشعر المعروفة في عصره فنظم في الادب والحكمة والوصف والغزل والمدح والفخر والرثاء والهجاء والدعابة وهو من احسن الكتاب شعراً ولكن الركن الذي تعتمد عليه منزلته في الادب هو النثر لا الشعر على انه يجود في البيتين وما فوقهما من المقطعات القصيرة حتى يخيل الى السامع ان الصاحب شارك الشعراء في كثير من حسهم وخيالهم ولكنه اذا اطال القطع دون ابلوغ استعان بوسائل الصنعة فاراك من انواعها صوراً غريبة فيها كثير من التأنق والتحذلق ولكنها كالجنة المحطبة لم تنفعها زينتها بعد ان فقدت الحياة لذلك لم تسلم له قصيدة.

اسلوب الصاحب في شعره كاسلوبه في نثره من حيث الصنعة والتزويق وربما كانت الصنعة في شعره اكثر كقصيدته التي اجتنب في كل واحدة منها حرفاً معيناً من حروف الهجاء ولكن الشعر لم يكن يواتيه مثل ما يواتيه النثر فكثيراً ما يسمو في النثر الى منزلة هي في الشعر من المحال كتاب

عصره أما بينه التي عود فيها فلا تخفى من السامع با كثر من الاستملاح والاستعراف وستطلع على أمثلة من شعره في آخر هذه الرسالة .

نصوص من كلام الصاحب ابن عباد

كثر آثار الصاحب فقدت ، وقليل منها لا يزال مخطوطاً كديوان شعره والمختار من ديوان رسائله ، وما طبع من نثره وشعره مفرق في كتب الادب والتراجم على سبيل الاستشهاد والاختيار لا يجمعه كتاب خاص ، والاطلاع عليه يقتضي تصفح كثير من الكتب ويستغرق زمناً طويلاً . لذلك فقد جمعت في هذا الفصل كل ما تيسر لي العثور عليه مما يجوز نشره من نثره وشعره المبثوث في كتب الادب . أما المختار من ديوان رسائله فقد انتقيت طائفة منه وارجو ان اوفق الى طبعه على حدة

رسول الله

خيرة الله من خلقه ، والهادي الى حقه ، والمنبه الى حكمه ، والداعي الى رشده ، والمؤيد من عنده ، والمحتج به على جنه وانسه ، مختار من أكرم المنابت ، منتخب من اشرف العناصر ، مرتضى من أعلى المحاتد ، موثر من أعظم العشائر ، معتم من نجم القبائل ، معضود بالمعجزات الغر ، مرفود بالدلالات الزهر ، لا تخبو

ره ، ولا يوضع منارة ، ولا ينحرف سناه وسناؤه ، هدي به الخلق
من ضلالة سوداء دهماء ، وعلموا به من جهالة زبداء جهلاء ، مبارك
مولده ، سعيد مورده ، قاطعة حجته ، سامية درجته ، ساطع صباحه ،
متوقد مصباحه ، مظفرة حروبه ، ميسرة خطوبه ، نسخت بملته الملل ،
وبشرعته الشرع ، وبنحلته النحل ، وبكلمته الكلم ، وبأمته الأمم ، وبسنته
السنن ، وصار العاقب والخاتم ، والقاطع والحازم ، قد أفرد بالزعامة
وحده ، وختم بالأنبياء بعده ، فاستوفت دعوته شرق الأرض وغربها ،
ومسحت بر الدنيا وبحرها ، وأذعنت له سود الرجال وحمرها ، وذلت
لعزته صيد الملوك وكبرها ، وصار المخالفون سراً ، يضطرون إلى
اعتزاء إليه جهراً ، يفصح بشعاره على المنابر ، وبالصلاة عليه في
المحاضر ، وتعمر بذكره صدور المساجد والمنابر ، ويستوي في
التطأمن لأمره حالتا الغائب والحاضر ، والوارد والصادر ،
لم يكتب كاتب إلا ابتدأ مصلياً عليه ، ولم يختم إلا برد السلام
والتحية إليه ، كأنهم مسخرون غير مؤثرين ، ومجبورون غير
متخيرين ، لطفاً من الله جمعهم على فضيلته ، وألفهم على جديلته ،
ذلك سيد الأولين والآخرين ، رسول الله صلى الله عليه وعلى آله
وأصحابه أجمعين

علي بن ابي طالب

اسلامه سابق، ومحله سامق، ومجده باسق، وذكره نجم طارق، وسيفه قدر وبارق، وعلمه بحر دافق، وامامته لواء خافق، ونظير هرون عند المشاكلة، وباب المدينة عند المشابهة، بدر يوم بدر بل شمسه، وأخو المصطفى بل نفسه، مصلي القبلتين، والهاشمي من الهاشميين، كفؤ أشرف النسم، وأكرم الكرائم في الامم، نسله أعز نسل، وأصله أفضل أصل، به تحل المشكلات، واليه ترجع المعضلات، ولداه الشمس والقمر، ولولا علي لهلك عمر، سيفه ام الآجال، ورمحه يتم الاطفال، وحملته رفع السدود، وصولته كسر البنود، قوى الله به ازر المسلمين، وفشى القتل في المشركين، قسيم الجنان، وباب الرحمة والرضوان، ثاني اصحاب الكساء في اذهاب الرجس، وحامل لواء الحمد عن يمين العرش، وصاحب الحوض يسقي من شايع ونايع، ويمنع من ناصب ونازع، ذاك أمير المؤمنين صلوات الله تختص أوصافه عن المشاركة، وتخلص نعوته عن المزاحمة.

وكتب الى بعض الاشراف معاتباً وملاطفاً:

وصل كتابك ايها الشريف اطال الله بقاءك ولكن بعد

ماذا؟ بعد ان كددتك بالعتب الوجيع ، وفرعتك بعصا التقريع ، وكأن الأكف قد عصرته بعد كد من ماء وجه البخيل وما كذا كان الظن بك وخلقك الخلق الرحب ، وانت الحلال الحلو والبارد العذب ، وقد ينسى المرء ابعد خليليه ذنباً وخلة ، وان كان صدقهم عهداً وخلة ، غير اني لم احسبك ترضى بالرتبة الدنيا في كرم العهد ، وترعى روضة الهوينا في صحة العقد ، فملأت يدي ثقة ورجاء ، حتى أعدتها عليّ صفراً جلاء ، وبعد ذاك فنيت شوقي اليك ، على قدر حظي منك ، كلا بل انت حدين فكري وسميره ، وامين قلبي واميره ، تصرفه كيف احببت ، وتنقله كيف طلبت ، وتسلمه لتناوب البر والجفاء ، وتتلاعب به كتلاعب الافعال بالاسماء ، فاذا استنزلتك عن كتاب تصدره انفقت بالمعروف وجدت بالنذر المتفوه حتى كأن بياض قرطاسك من شيبة الحمد ، وسواد انفاسك من سواد الناظر والقلب ، فلا تفعل جعلت فداك فغير هذا نزلت السور ، ونبيت النذر ، وتكررت العبر ، وتربعت ربيعة وتمضرت مضر ، وآخر دعواي ان كيف شئت فكن ، وقل اذا عز اخوك فهن ، سقى الله عهدك غيثاً كغزارة فضلك ، وسلاسة طبعك ، وصفاء ودك ، ولا عاشت المحاسن من بعدك .

وكتب جواباً على عتاب :

التجرم يا سيدي وحليفي دأب من ضاق عطنه عن الاخلاق السمحة ، وتضاءل وده عن انطباع العدلة ، فهو دائماً يخلق لاخوانه جريرة يصليهم نار عتبها ، ويوليهم جانب عدلها ، والحر كل الحر من لحظ احوالهم بعين تجمع الى الصفة التسمح ، والى المعدلة الترخص ، وان شاهد جميلاً كثر قليله ، وان صادف قصيراً حسن قبحه ، وقد نزهك الله عن ان تكون معنا وعريضاً تنتهز الفرصة فما هذا التعدي الذي علقت اوثق اسبابه ، وانتحى الذي ولجت ضيق ابوابه ؟ وقد علم الناس كيف يباري ناك واكباري ، وعلمت كيف ابسطك في خاص احوالي واسراري ، حتى كأنا قضينا الشباب على تلاوم ، وصافحنا الكهولة عن تنادم ، ومتى كان الاعراض الذي اشرت اليه ، والانقباض الذي نصصت عليه ، ومن هذا الواشي الذي يطمع في احالة حالك ولو قعد من الدهر على رصد ، ونفث من السحر في العقد ، فكيف حسبتني ممن تستفزه السعاة ، وتهزه الوشاة ؟ انك تستخف حلماً لعل الاطواد الصم تشهد له بالرزانة ، والجبال الشم تبرأ اليه من رصانه ،

ولكل ذي قلم جانب من البلاغة هو فيه أوسع عناناً ، وارحب جناناً ، وكنت في العتب افسح مجالاً ، واملأ سجالاً ، وقد اردت ان اعاتبك عن عتبك فاطيل ، والذي اقول واعيد ، واذكر ما في هذا الباب من المدام (التي) تصاد محاسنك ، وتحادّ مناقبك . ثم كففت وصدفت ، واقتصرت وخففت ، نعم وزعمت انك قد اكثرت عليّ فسئمت ، واطلت فتبرمت ، ولو شئت لقلت انك اردت تهجيني فبدأت بنفسك ، وتبجيلي فتحاملت على فعلك ، اذ قد علم الناس خلاف ما حكيت ، ودروا اني بمناة مما ادعيت ، اوجب لمن ضمه الي السبب الضعيف ما يوجب تلاح المشابك في الارومة ، والمشارك في الخؤولة والعمومة ، واني لا لومك على الانقباض لوما يريني فعلك لوماً ، ويودي لو كلفت مع كل صباح نفس حاجات تعادّ الرمل ، وتناسب القطر ، فهذا هذا والقصتان قد وقّع فيهما بما رأيت . وان سألت في الالتماس بأمرّ من العلقم ، واضرّ من الارقم . وكل ذلك تأتي به مقبول ، وعلى جانب الانس محمول ، لا عدمتك .

وكتب يصلح بين الاشراف العلوية بقزوين :

كتابي اطال الله بقاء الشريفين سيديّ وكبيريّ عن سلامة مولانا الامير المؤيد الدولة وانتظام امور سلطانه ، وعافيتي بدولته وعلو شأنه ، والحمد لله رب العالمين وصلاته على خيرته محمد وعترته . وقد علم الشريفان ان الصلاح تجتمع اطرافه ، وتحرس اكنافه ، باطّراح الضغائن ، وتسوية الظواهر والبواطن ، والاخذ بالخلق السمح ، وترك المشاحة والشح . وان المغارة تورث التباعد ، وتزيل التعاون والتراصد ، والاشراف العلوية تقزوين بينهم وبين سائر الطوائف شحناء لا تكاد تسقط جمراتها ، ولا تنجلي غمراتها ، وقد كتبت في ذلك كتابا ارجوه يجمع على الالفة ، ويحرس من الفرقة ، وينظم على ترك المنازعة ، والجنوح الى الموادعة ، فان المهادنة تجمل بين الملتين ، فكيف بين النحلتين ، والله نسأل توفيقا لانفسنا ولهم واذا عرفت لما يجري من ذلك تأويلا وان كان ضعيفا فليت شعري لم بين آل ابي طالب ايدهم الله تمادٍ وتباغض ، وتناء وترافض ، وشر قد تعدى الى اراقة الدم ، وقطع العصم ، ونسيان الذمم ، وبات الرسالة يجمعهم ، وظل النبوة يكنفهم ، ورحم الوصية تؤلفهم ، وهل ذلك الا من حبائل الشيطان ومكائده ، ونزغاته ومراصده ، وقد اعتمدت

الشريفين لامرين عظيمين ، اولهما واولاهما ، ازالة هذا التنازع والتقاطع ، بين بني العم حتى يكونوا متوازرين متعادلين ، اخوانا متقابلين ، وان احتاج بعض الى احتمال ضيم البعض ، والتزام هضيمة وغض ، فالدين يقتضي ذلك اقتضاء لا رخصة في تركه ، ولا تأويل في حله ، ولا عذر في هجره ، وان توقع ما يكون من هؤلاء الاشراف ايدهم الله في الاستجابة لما رسمت ، والتزام ما لزمت ، ومن الشريفين ايدهما الله في اصلاح ذات البين ، والصبر على ايقاع الاتفاق ، ورفع الافتراق ، واستعادة الائتلاف ، واماطة الاختلاف ان شاء الله تعالى

وكتب يعزي ابا عن ولده :

هو الدهر يا شيخي وكبري فلا تعجب من طوارقه ، ولا تنكر هجوم بوائقه ، عطاؤه في ضمان الارتجاع ، وحباؤه في قران الانتزاع ، بينما يمنح المرء حتى يسلب ، وبينما يعطي حتى يحرب ، واللبيب يستشعر الفجيعة ، حين يؤتى الوديعة ، ويتمثل الفقدان ، ساعة يصافح الوجدان ، علماً بأن الله تعالى جعل الدار دار امتحان لا دار مقام . وبلغني من مضيّ الفتى قدّس الله روحه ، وبرّد ضريحه ، على حين امنته الاحوال ،

ورجوته لكفاية واستقلال ، ما جرى الدمع ، وأعظم الفجع ، ولم ادر أتصور حاله وقد اخضر شبابه ، وتقطعت اسبابه ، ولم تغن عنه طراوته في العيون ، وحلاوته وعزه على العشيرة ، وكبرة الحامين له دون العصيمة ، فلا يملك عن روحه دفعاً ، ولا يستطيع للحتم رداً بنفسه ولا بذويه ؟ ام حالك وقد اخذ عن عينك قرتها ، وعن نفسك ثمرتها ، وعن ذراك حسنتها ، وعن مناك غايتها ؟ فلا القلق ينفع ، ولا الحيلة تدفع ، ولا العدية تقبل ، ولا البلية تمهل ؟ وكل ذلك يزيد المؤمنين ايماناً ، والموقنين ايقاناً ، فيعلم أن الامر كله لمن يغلب ولا يغلب ، وكيف ما شاء يفعل ويقلب ، الا ان الارضى خليقة ، والاهدى طريقة ، من علم أن اللطيف الرؤوف لا يعطي الا إذا كان العطاء اربح ، ولا يأخذ الا اذا كان الأخذ اصلح . وانك وان كان طهراً ، فقد عاد اجراً ، وان كان فخراً ، فقد رجع ذخراً ، فأحسن العزاء واجمل الرجعى ، فما عند الله خير وابقى . واعلم ان الناس قبلك فجعوا فجزعوا ، وذهلوا فذلهوا ، ثم لم يرد التسلب من مات ، ولم يرجع التهالك كل من فات ، فعادوا الى التسليم ، وفوضوا الى

القادر الحكيم . وان المرء ليقدم السلوة فيجبر مصابه ، كما يؤخرها فيحبط ثوابه . اخذ الله بك الى ما هو أولى بسنك ودينك ، وحسن عقيدتك ويقينك . أحب ان تعرفني خيرك في التفويض الى الله ، وحسن الرضا بقدر الله ، فان الرزء ما كان أفظع ، كان العوض أوسع ، وانت وان احتجت الى الاولاد ، فحاجتك العظمى الى حسن المعاد ، والله أسأل لك ولنفسي التوفيق والتسديد ، انه فعال لما يريد .

وله في باب التعازي :

ورد كتاب مولاي يذكر مضي فلان فوجدت نفسي كالمصاب بنجيب من أبنائه ، او عزيز من أعضائه ، وورد على قلبي ما غشاه كربا يتعذر دواؤه ، ويتعسر جلاؤه ، فما أدري بعد هذا ما أكتب وما أقول ، وكيف يذم هذا الزمان الخؤون ولكني أنشد :

ما أعلم الدهر بمن أحب

وأردد :

هذا الزمان يسوءني فجعاً بكل خليل
فكأنه يمضي الى ما ساءني بدليل

والله أسأل ان يطهرنا للقائه ، فكل لابد وارد هذا الحوض وان مد في اجله ، وأخر في مهله ، ونعوذ بالله من طول الآمال ، وقصر الآجال ، وشرور النفوس وسيئات الأعمال ، ورحم الله فلانا فلقد كان قليل النظير في اشكاله ، بل عديم المثيل في امثاله ، وسأكتب لي فلان ممزيّ وان لم أجده أولى مني بتفجيعه ، فاحفظ المودة الخاصة ، فوق ارحم الماسة .

وله يعاتب كاتباً ترجع في صناعته :

كنت ابتدأتك بالمحاطبة ، وحضضتك في آلات تكتبه على المداومة والمواظبة ، فأجد خطك يزداد على الأيام ويستجاد ، ثم أهملت التعهد ، وتسلسلت التجوز ، وصار ما تكتبه مضطرب الحروف ، متضاعف الصعف والتحريف ، وحملت أتأول لك يوماً بقلم لم يستجب بريه ، ويوماً بمداد لم يعد جريه ، الى أن صار رداءة الخط سنة لك وسنناً ، ورسماً ثابتاً مرتهناً ، وقدمت هذا الخطب مذكراً ، ورجوت ألا تحوج لي مثله منكراً ، وإياك وإياك اضطراري فثابر على المشق والتسويد ، واهتم بالتصحيح والتجويد ، واعمل

على ان تقوم حرفاً حرفاً من خطك ، وتصوره في نفسك قبل تصويره بيدك ، وليكن لك من يوقفك على مواضع التقصير والتضجيع ، لأتبين الزيادة فيما يرد منك وقتاً وقتاً ، قبل ان اوسعك تهجيناً ومقتاً والسلام (١)

فصل من كتاب له الى ابن العميد صدر جواباً عن كتابه اليه في وصف البحر :

وصل كتاب الاستاذ الرئيس صادراً عن شط البحر بوصف ما شاهد من عجائبه ، وعاين من مراكبه ، ورآه من طاعة الآلة للرياح كيف ارادتها ، واستجابة ادواتها لها متى بادتها ، وركوب الناس اشباحها ، والخوف بمرأى ومسمع ، والمنون بمرقب ومطلع ، والدهر بين اخذ وترك ، والارواح بين نجاة وهلك اذا فكروا في مكاسب الخطيرة هان عليهم الخطر ، واذا لاحت لهم غرر المطالب الكثيرة حبب اليهم الغرر .

وعرفت ما قاله من تمنيه كوني عند ذلك بحضرته ، وحصولي على مساعدته ، ومن رأى بحر الاستاذ كيف يدخر بالفضل ، وتتلاطم فيه امواج الادب العلم ، لم يعتب على الدهر فيما بقيته

(١) آخر ما اثبتناه من المختار من ديوان رسائل الصاحب المخطوط .

من مطر البحر ، ولا فضيلة له عندي اعظم من كبر الاستاذ لاحوله ، واستعظامه لاهوله ، كما لا شيء ابلغ في مفاخره ، وانفس في جواهره ، من وصف الاستاذ له فاني قرأت منه الماء سلسال لا الزلزال ، والسحر الحرام لا الحلال ، وقد علم به كتب ولما يخطر بفكره ، سعة صدره ، فلو فعل الرأي البحر وشلا لا يفضل عن التعرض ، وثمداً لا يكثر عن الترشف .

وكم من جبال جنت تشهد انك ... بجبال وبحر شاهد انك البحر

وكتب تهنئة بزواج ام وتعزية بموت اب :

الايام — اطال الله بقائك — تجري على انحاء مختلفة ، وشعب متفرقة ، واحكامها تتفاوت بنا بما يسوء ويسر ، وينفع ويضر ، ويبني من نفوذ قضاء الله في شيخك رحمه الله ما ازعجني ، وبهم طرق السلوة دوني ، وان كان من خلفك غير خارج عن مزية الاحياء ، ولا حاصل في زمرة الاموات ، والله يأسو كلمك ، ويسد ثلمك ، وقد فعل ذلك بان اتاح الله لك بعد ابيك اباً لا يقصر عنه شفقة عليك وحنوا ، ويثارا لك وبرا ، وقد لعمري وفقت حين وصلت بحبلك حبله ، واسكنت الكبيرة حرسها الله تعالى ظله ، لئلا تفقد من الماضي عفا الله عنه لا

شخصه . فالحمد لله الذي ارشدك لما بعيد الشمل مجتمعاً بعد فراقه ، والعدد موفوراً بعد انتقاصه ، حمداً يقضي لك بالمسرة ، ويحسم دونك مراد الوحشة ، ويلقيك ثواب ما قضيته من الحق ، وتحملته من الاوق [1] ، انه فعال لما يريد .

وكتب تهنئة بنت :

اهلاً وسهلاً بعقيلة النساء ، وام الابناء ، وجالبة الاصهار ، والاولاد الاطهار ، والمبشرة باخوة يتنافسون ، ونجباء يتلاحقون .

فلو كان النساء كمثل هذي تفضلت النساء على الرجال
وما تأنيث لاسم الشمس عيب ولا تذكير فخر للهلال

فادّرع ياسيدي اغتباطاً ، واستأنف نشاطاً ، فالدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها ، والذكور يعبدونها ، والارض مؤنثة ومنها خلقت البرية ، وفيها كثرت الذرية ؛ والسماء مؤنثة وقد تزينت بالكواكب ، وحليت بالنجم الثاقب ، والنفس مؤنثة وهي قوام الابدان ، وملاك الحيوان ، والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون ، وفيها ينعم المرسلون ، فهنيئاً هنيئاً

(١) النقل

ما وليت ، ووزعك الله شكر ما اعطيت ، وطال الله بقاءك ، ما عرف النسل والولد ، وما بقي الأبد ، وكما عُمِّرَ لُبَد .

وكتب الى ابي علي الحسن بن احمد في شأن ابي عبد الله محمد بن حامد :

كتابي هذا وقد ارخى الليل سدوله ، وسحب الظلام ذيوله ، ونحن على الرحيل غداً ان شاء الله اذا مد الصباح غرره قبل ان يسبغ حجوله ، ولولا ذلك لاطلته كوقوف الحجيج على المشاعر ، ولم اقتصر منه على زاد المسافر ، فان التحمل له وسيع الحقوق لديّ ، حقيق ان اتعب له خاطري ويديّ ، وهو ابو عبد الله الحامدي اعزه الله تعالى كان وافانا مع ذلك الشيخ الشهيد ، ابي سعيد الشبيبي السعيد ، رفع الله منازله وقتل قاتله ، يكتب له فآنسنا بفضله ، وانسنا الخير من عقله ، فلما فجع بتلك الصحبة ، وبما كان له فيها من قربة ، لم يرض غير بابي مشرعاً ، وغير جنابي مرتعاً ، وقطع اليّ الطريق الشاق مؤكداً حقاً لا يشق غباره ، ولا ينسى على الزمان ذماره ، وكنت على جناح النهضة

التي لم يستقر نوها ، ولم تبن حصنها ، ولم تلق عصاها ، فخرج الحر ، المبتدئ الامر ، القريب العهد بوطأة الدهر ، حامل عليه بالركب الوعر ، فرددته اليك ياسيدي لتسهل عليه حجابك ، وتمهد له جنابك ، وتترصد له عملا خفيف الثقل ، ندي الظل ، فاذا اتفق عرضته عليه ، ثم فوضته اليه ، وهو الى ان يتفق ذاك ضيفي وعليك قراه ، وعندك مربعه ومشتهاه ، ويريد اشتغالاً بالعلم ليزيده في الاستقلال ، الى ان يأتيه ان شاء الله خبرنا في الاستقرار ، ثم له الخيار ، ان شاء اقام على ما وليته ، وان شاء لحق بنا ناشراً ما اوليته ، وقد وقعت له الى فلان بما يعينه على بعض الانتظار ، الى ان تختار له ايدك الله كل الاختيار ، فأوعز اليّ بتعجيله ، وكفني شغل القلب بهذا الحر الذي افردني بتأميله ، ان شاء الله تعالى .

وكتب الى القاضي أبي بشر الفضل بن محمد الجرجاني عند وروده باب الري وافداً عليه :

تحدثت الركاب بسير اروى الى بلد حططت به خيامي
فكدت أطير من شوقي اليها بقادمة كقادمة الحمام
أفحق ما قيل من امر القادم ، ام ظن كأماني الحالم ؟ لا والله بل

هو درك عيان ، وانه ونيل سني سيان . فمرحباً بها القاضي براحتك ورحلك ، بل اهلا بك وبكافة اهلك ، وبا سرعة ما فاح نسيم مسراك ، ووجدنا ريح يوسف من رياك ، فحث المطي تزل غلتي بسقياك ، وترح علتي بلقياك ، ونص على يوم الوصول لنجعله عيداً مشرقاً ، ونتخذه موسماً ومعرقاً ، ورد الغلام ، اسرع من رجع الكلام ، فقد امرته ان يطير على جناح نسر ، وان يترك الصبا في عقال واسر .

سقى الله دارات مررت بارضها فأدتك نحوي يا زياد بن عامر
اصائل قرب ارتجي ان انالها بلقياك قد زحزحن حر الهواجر

وكتب يذكر مصحفاً اهدي اليه .

البر ادام الله الشيخ انواع ، تطول به بواع ، وتقصر عنه ابواع ، فان يكن فيها ما هو اكرم منصباً ، واشرف منسباً ، فتحفة الشيخ اذ اهدى ما لا تشاكله النعم ، ولا تعادله القيم ، كتاب الله وبيانه ، وكلامه وفرقانه ، ووحيه وتنزيله ، وهداه وسبيله ، ومعجز رسول الله صلى الله وسلم ودليله ، طبع دون معارضه على الشفاه ، وختم على الخواطر والافواه ، فقصر عنه الثقلان ، وبقي ما بقي الملوان ، لائح سراجه ، واضح منهاجه ،

منير دليله ، عميق تأويله ، يقصم كل شيطان مريد ، ويذل كل جبار عنيد ، وفضائل القرآن ، لا تحصى في الف قران ، فاصف الخط الذي بهر الطرف ، وفق وصف ، وجمع صحة الاقسام ، وزاد في نخوة الاقلام ، بل اصفه بترك الوصف فاخباره آثاره ، وعيبه فراره ، وحقّ اقول اني لا احسب احداً ما خلا الملوك جمع من المصحف ما جمعت ، وابتدع في استكتبها ما ابتدعت ، وان هذا المصحف زائد على جميعها زيادة القرعة[1] على الغرة ، بل زيادة الحج على العمرة .

لقد اهديته علقاً نفساً ... وما يهدي النفيس سوى النفيس

وكتب الى ابي سعيد الشيباني :

قد رأى شيخ الدولتين كيف الكلف بسادتي من هل ميكال ايدهم الله بين ود اضمره على البعد ، وايثار اظهره على تراخي المزار ، وتقريظ يمليه على المأون ، ومدح نطق فيه بلسان الزمان ، حتى ان ذكرهم اذا جرى على لساني ، اهتزت له نفسي ، وفضلهم اذا جرى على سمعي ، ابتهج له صدري ، فتلك عصبة خير فضلها باهر ، وشرفها على شرف ابناء زاهر ، وشجرة

(١) لعله الفرع .

حلية ، صلها ثابت وفرعه في السماء ، والله يتمم اعدادها ، ولا يعدمني ودادها ، وان كان اكباري لهم هذا الاكبار ، فكل منتسب الى جنبهم اثير لدي ، كثير في يدي ، وطرأ علي فلان منتسباً الى جملتهم ، وحدا الحملة ، ومعتزيا الى حمتهم ، ولست الخدمة ، فقورناه عن طمع سمح ، ولفقد عدب ، وصلة نزر بنصم ، فان شاء قال انا الوليد ، وان شاء قال انا عبد حميد ، ولم اعظم بمن حزته تلك النعمة ، ونتجته تلك السدة ، ان يأخذ من كل حسنة بعروة ، ويقدح في كل نار مجذوة ، وآنس بالمقام مدة ، اكدتها شوائع عدة ، الى ان تذكر معاهد رأى فيها الدهر طلقاً والزمان علاماً ، والفضل رهناً والافضال رماً ، فحن حنين الركاب ، وركب عزيم الاياب .

وكتب في وصف كتاب :

. . ومن هو الذي لا يحبه وهو علم الفضل ، وواسطة الدهر ، وقرارة الادب والعلم ، ومجمع الدرية والفهم ، ام من يرغب عن مكاثرة بمن يسب الربيع الى حلقه ، ويكتسب محاسنه من صنعه ، ويتوشح بانواره ، ويتوضح بآثار لسانه ويده ، وصل كتابه ، فرتحت لعنوانه ، قبل عيانه ، حتى اذا فضضت

ختامه اقبلت الفقر تتكاثر ، والدرر تتناثر ، والغرر تتراكم ، والنكت تتراحم ، فاذا حكمت للفظة بالسبق اتت اختها تتقافز ، واقبلت لديها تتفاخر ، حتى استعفيت من الحكومة ، ونفضت يدي من غبار الخصومة ، واخذت اقول كلكن صوادر عن اصل واحد فتسالمن ، وارفاد عن معدن راقد فتصالحن ، وقد وليت النظر بينهما من كمل لنسج برودهما ، ووفى بنظم عقودهما ، على انني يا مولاي انشأت هذه الاحرف وحوتي اعمال واشغال لا يسلم معهما فكر ، ولا يسلم بينهما طبع ، وتناولت قلما كالابن العاق ، بل العدو المشاق ، اذا اردته استقال ، واذا قومته مال ، واذا حثثته وقف ، واذا وقفته انحرف ، احدل[1] الشق ، متفاوت البري ، معدوم الجري ، محرف القط ، مثبج[2] الخط ، ثم رأيت العدول عنه ضربا من الانقياد لامره ، والانخراط في سلكه ، فجهدته على رغمه ، وكددته على صغره ، لاجرم ان جناية اللجاج بادية على صفحات الحروف لا تخفى ، وعادية المحك[3] لائحة على وجوه السطور تتجلى .

---

(١) الاحدل : المائل . (٢) المثبج : المعمى .

(٣) المحك : التمادي في اللجاج والغضب .

وكتب في معناه : والله يعلم اني أحببت بورود كتابه واستفزني الفرح قبل رؤيته ، وهز عطفي للمرح امام مشاهدته ، فما دري اسمعت بورود كتاب ، أم طلعت برجوع شباب ؟ ثم وصل بعد انتظار له شديد ، وتطلع الى وصوله طويل عريض ، فتأملته فلم ادر ما تأملت أخطاً مسطوراً ، أم روضاً معطوراً ، أم كلاماً منثوراً ، أم وشياً منشوراً ؟ ولم ادر ما أبصرت في اثنائه أأبيات شعر ، أم عقود در ؟ ولم ادر ما جملته أغيث حلّ بوادي طيّآن ، أم غوث سيق الى لهفان ؟ .

وكتب : وصل كتابك فغمرني وعظمت قدر النعمة في مطلعه ، وجلات محل الموهبة بوقعه ، وفضضته عن سحر حلالاً ، وماء زلالاً ، وسرحت الطرف منه في رياض رفت حواشيها ، وحفل تأنق وشيها ، فلم تجاوز فصلاً الا الى أخطر منه فضلاً ، ولم تخط سطراً الا الى أحسن منه نظماً ونثراً .

وكتب أيضاً : وصل كتابك فجعت وصوله عيداً أرّخ به يام بهجتي ، وفتح به مواقيت غبطتي ، وعرفت من خبر سلامتك ما سألت الله الكريم ان يصله بالدوام ، ويرفعه على أيدي الايام .

وكتب أيضاً : وصل كتابه أيده الله يضحك عن أخلاقه الارحة ، ويتهلل عن عشرته العطرة ، ويخبر عن عافية الله لمن رأيت شمل الحرية به منتظماً ، وشعب المروءة له ملتئماً ، ويحمل من انواع بره ، ما اقصر عن ذكره ، ولا أطمع في شكره ، ويؤدي من لطيف اعتداده في تلاد عبده ، ما تزداد أسبابه المودة تمهيداً به ، وفهمته ورعيت الى الله بخالص طوية ، ومحض نية .

وكتب الى حسام الدولة ابي العباس ناش الجانب في القاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني :

قد تقدم وصفي للقاضي ابي الحسن علي بن عبد العزيز ادام الله تعالى عزه فيما سبق الى حضرة الامير الخليل صاحب الجيش ادام الله تعالى علوه من كتبي ما اعلم اني لم اوف فيه بعض الحق ، وان كنت دللته على حملة تتطلق بلسن الفضل ، وتكشف عن ابه من افراد الدهر ، في كل قسم من اقسام الادب واعلم ، فاما موقعه مني فموقع تخطيه هذه المحاسن ، وتوجبه هذه المناقب ، وعادته معي ان لا يفارقني مقيماً وظاعناً ، ومسافراً وقاطناً ، وحتى الآن ، الى مطالعة جرجان ، بعد ان شرطت عليه تصيير المقام

كالالمام ، فطالبني مكانتي بتعريف الامير مصدره ومورده فان عنّ له ما يحتاج الى عرضه وجد من شرف سعافه ما هو المعتاد يستعجل الكفاؤه اليّ بما يرسم ادام الله ايامه من مظاهرته على ما يقدم الرحيل ، و ينسخ السبيل ، من بدرقة ان احتاج اليها والى الاستظهار بها ومحاطة لبعض من في الطريق يتصرف بنجح فيها فان رأى الامير ان يجعل من حظوظي الجسيمة عنه تعهد القاضي ابي الحسن بما يعجل رده ، فاني ما غاب كالمصل الناشد ، و اذا عاد كالغانم الواحد ، فعل ان شاء الله تعالى

ووجه الصاحب ابا الحسن الجوهري الى ابي العباس الضبي باصبهان وزوده بهذا الكتاب :

اوصاني لمولاي ادام الله تعالى عزه تودع الشوق اليه حبات القلوب ، كما تملأ له بالمحبة اوساط الصدور ، فلا تغادر ذا قدح فائز في الفضل ، وخصل سابق في خصال العلم ، الا وثار الحنين حشو ثيابه او يرحل اليه ، و يبيخ ركائب السير لديه ، لا جرم ان جل من يحضرني يطالبني بالاذن له في قصده ، و يهتبل غرة الزمان في الخطوة بقربه ، نعم ودور

التحصيل اذا حطوا لدي نزلة ، واحصفوا عروة خدمة ، اعتقدوا انهم ان لم يعتمدوا ظله ، ولم يعتلقوا حبله ، كانوا كمن حج ولم يعتمر ، ودخل ظفار ولم يحمّر ، الا ان جميعهم اذا دفعته اندفع ، واذا خدعته انخدع ، غير واحد ملط ، ملحف مشط ، يعريه الرد بالمراجعة ، ويعويه المنع للمعاودة ، ويقول بملء لسانه الى ان يسأم ، ويقتضي طول زمانه حتى يبرم ، وكم جررته على شوك المطل ، ونقلته من حزن الى سهل ، وصرفته على انجاز وعد بوعد ، ودفعته من استقبال شهر الى انسلاخ شهر ، ثم خوفته كلب الشتاء اجعل الربيع موعدا ، وحذرته وهج المصيف اعطيته للخريف موثقا ، وكم شغلته بعمالة بعد عمالة ، ووفادة بعد وفادة ، اريد في كل ان اصدفه عن وجهته ، واصده عن عزمته ، ليس لفرص اكثر من ان السؤال منه والدفاع مني تساجلا ، والالتماس منه والامتناع من جهتي تقابلا ، فلما خشيت صبابته باصبهان ان يردها بل بخدمة مولاي ان يعتقدها تجني على قلبه ، او يتحيف بمس من الجنون ثابت عقله ، القيت حبله على غاربه ، وبردت بالاذن جمرات جوانحه ، فان يقل مولاي من

ذ لذي هذا خطبه ، وهذه خطته ، اقل من فصله برهان حق ، وشعره لسان صدق ، ومن أطبق اهل جلدته ، على انه معجزة بلدته ، فلا يعد الجرجان بعيدا ولا قريبا او لاختها صرستان قديما ولا حديثا مثله ، ومن اخذ برقاب النظم اخذه ، وملك رق القوافي ملكه ، ذاك على قتبال شبابه ، وريعان عمره ، وقبل ان تحدثه الآداب ، وقيل جري المذكيات غلاب ، ابو الحسن الجوهري ايده الله وتناوله عند مولاي منذ حين ، وخصوصه بي كالصبح المبين ، الا ان لمشاهدة الحاضر ، ومعاينة الناظر ، مزية لا يستقصيها الخبر وان امتد نفسه وطال عنانه ومرسه ، وقد الف من هذه الفضيلة التي قرع سيها ، ووفى على ذوي التجربة والتقدمة فيها ، نفاذاً في آداب الخدمة ، ومعرفة بحق الندام والعشرة ، وقبولا يملأ به مجلس الحفلة نصاتا للمتبوع الا اذا وجب القول ، واعظاماً للمخدوم الا اذا حرج الامر ، وطرفاً يشحن مجلس الخلوة حديثاً يسكت به العندب ويطاول البلابل . فان اتفق ان يفسح له في الفارسية نظماً ونثراً طفح ديّه ، وسال انيّه ، فالسنة اهل مصره الاّ الافراد يروق اذ وطنو اعقاب العجم ، وقيود اذا

تعاطوا لغات العرب، حتى ان الاديب منهم المقدم، والعليم المسوم، يتلعثم اذا حاصر بمنطقه، كأنه لم يدر من عدنان، ولم يسمع من قحطان ومن فضول اخينا او فضله انه يدعي الكتابة، ويدارس البلاغة، ويمارس الانشاء، ويهدي فيه ما شاء، وكنت اخرجته الى ناصر الدولة ابي الحسن محمد بن ابراهيم فوفق التوفيق كله صيانة لنفسه، وامانة في ودائع لسانه ويده، واظهاراً لنسك لم اعهده في مسكه، حتى خرج وسلم على نقده، وان نقده الشديد لمثله، ومولاي يجريه بحضرته مجراه بحضرتي، فطعامه ومنامه، وقعوده وقيامه، اما بين يديّ، او باقرب المجالس لديّ، ولا يقول هذا اديب وشاعر، او وافد وزائر، بل يحسبه قد تخفف بين يديه اعواماً واحقاباً، وقضى في التصرف لديه صبي وشبابا، وهذا انما يحتاج الى وسيط وشفيع ما لم ينشر بزه، ولم يظهر طرزه، والا فسيكون بعد شفيع من سواه، ووسيط من عداه، فهناك بحمد الله درقه وحدقه، ووجنة مطرقة[1] وما اكثر ما يفاخرنا بمناظر جرجان وصحاريها، ورفارفها وحواشيها، فليملأ مولاي عينه من منتزهات اصبهان فعسى طماحه ان يخف،

(١) لعله وجنة مطرقة او وجنة ومطرقة .

وجماحه ان يقل . وشريطة اخرى في بابه وهي انه ليس موضعاً لماله فسبيل ما يرزأه ان يكون ما اقام في حجره ، وان اذن له مولاي في العود داخلا في حظر ، فما اكثر ما يرى البرمكة تبرماً بجانب الجمع ، وتحرقاً في مذاهب البذل ، ونسبة للرياح الى الامساك والبخل ، فلئن تراه والثروة اقرب وصفيه ، حتى تلقاه وحاجة احد خصميه ، وكم وكم تدارك امره فما ازداد الخرق الا وسعاً لا يقبل رتقاً ، وتهوناً لا يسع تلافياً ، وما كنت مع ابرامه لافسح له في الخروج ، وامد له طول النهوض مع سني الشديد بحضوره ، واستمتاع النفس بعقله وجنونه ، غير اني ورثته من ينظر بعيني ، ويسمع باذني ، ومن اذا ارتاح للامر فقد ارتحت ، واذا انشرح صدره فقد انشرحت . ونكتة اخرى وهي واسطة التاج ، وفاتحة الرتاج ، مولاي سمح بماله ، مقرب لماله ، بخيل بجاهه ضنين بكلامه وابو الحسن لا يقبل العذر ، او يصدق النذر ، فيجعل جوده بلسانه ، ابلغ من جوده ببنانه ، وحقاً اخبر ان قصده لاكثر الارتفاع لا لانتفاع غير اني نبأت عن سره ، وعن سن بكره .

وكتب الى ابي سعيد الاسماعيلي يصف قصيدة لابنه ابي معمر الاسماعيلي :

ويعد فهل اتاك حديث الاعجاب منا وقد طلعت من ارضك فقرة الفقر ، وغرة الغرر ، وحديقة الزهر ، وخليفة المطر ، تلك حسنة انتشرت عن ضوئك ، وعمامة نشأت بنوئك ، ونار قدحت بزندك ، وصفيحة فضل طبعت على نقدك . وانها لقصيدة ولدنا ابي معمر عمره الله تعالى ما اختار ، وعمر به الرباع والديار ، خطت باقدام الاجادة ، وقطعت مسافة الاصابة ، وسعت الى كعبة القبول ، وحلت حرم الامن خير الحلول ، نلني وقد تعرت من لباس التعمل ، وتجردت عن عطاف التبذل ، فلم تدع متمسكاً من البر الا قصته ، ولا مشعراً من الفضل الا عمرته ، ولا معرفاً من العلم الا شهدته ، ولا محصاً من الفهم الا حضرته . واجتمعنا حولها وانا لاعداد جمة ، وفينا واحد يقال انه امة ، كأنا عديد الموسم يعظمون الشعائر ، ويعلقون الستائر ، ويحتضنون الملتزم ، ويلثمون المستلم . وهذا الكتاب يرد عليكم بالخير أسرع من اللمح البارق ، نعم ومن اللمع الخاطف ، واخف من سابق الحجيج وان كان المثل الاعلى لبيت الله

العتيق ، فاحمد الله اذ قرن فضل فرعك بفضلك ، وجعل فرعك كأصلك ، وانبت غصنك على شجرك ، واشتق هلالك من قمرك ، وارك من ظهرك ، من يحدو على نحرك ، ويصل فخره بفخرك ، ويشيد من بناء الدراية ما اسست ، ويسقي من شجر الرواية ما غرست

وكتب الى ابي العباس الضبي في ذكر ابي سعيد رستمي :

كان بعد في جمع اصدقائنا باصبهان رجل ليس بشديد الاعتدال في خلقه ، ولا ببارع الجمال في وجهه ، بل كان يروع بمحاسن شعره ، وسلامة وده ، اما الشعر فقد غاص حتى غاط ، واما الود فغاص او فاط ، فان تذكره مولاي بوصفه والا فليسأل عن خاله وعمه ، اما العمومة ففي آل رستم وثم الذروة والغارب ، وبرئ العجم وغالب ، واما الخؤولة ففي آل جنيد ، كما قال شاعرهم في سعد وسعيد ، وقد سألت عن خبره وقد نجران ، والركب بجبلي نعمان ، فلم يذكروا الا انه مشمول بخطبة سبطه ابي القاسم ابن بحر رحمه الله تعالى لفتاة عزه الله وليس في ذلك ما يوجب ان يطوينا طي الرداء ، ويلقى عهدنا القاء الحذاء ، وقد يعود الصلاح فساداً ، ويرجع النفاق كساداً .

فلعل تيما ان تلاقي خطة فتروم نصرا من بني العوام

قال الثعالبي سمعت ابا جعفر الطبري الطبيب المعروف بالبلاذري يقول ان للصاحب رسالة في الطب لو علمها ابن قرة وابن زكريا لما زادا عليها فسألته ان يعيرنيها ان كانت عنده فذكر انها في جملة ما غاب عنه من كتبه فاستغربت واستبعدت ما حكاه من تطبب الصاحب ونسبته في نفسي الى التزيد والتكثر الى ان ظفرت في نسخة الرسائل المؤلفة المنوبة للصاحب برسالة قدرتها تلك التي ذكرها ابو جعفر ووجدتها تجمع الى ملاحة البلاغة ورشاقة العبارة حسن التصرف في لطائف الطب وخصائصه وتدل على التبحر في علمه وقوة المعرفة بدقائقه وهذه نسختها واكثر ظني انه قد كتبها الى ابي العباس الضبي :

قد عرفت ما شرحه مولاي من امره ، وانبأ عنه من احوال جسمه ، فدلتني جملته على بقايا في البدن يحتاج معها الى الصبر على التنقية ، والرفق بالتصفية ؛ فاما الذي يشكوه من ضعف معدته وقلة شهوته ، فلامرين احدهما ان الجسم كما قلت آنفاً لم ينق فتنفتق الشهوة الصادقة ، وترجع العادة

السابقة ، والآخر ان المعدة اذا دامت عليها المطفيات ، ولزت بها المبردات ، قلت الشهوة وضعف الهضم ، ومع ذلك فلابد مما يطفي ويغذي ، ثم يمكن من بعد ان يتدارك ضعف المعدة بما يقوي منها ، ويزيل العارض المكتسب عنها ، كما يقول الفاضل جالينوس : قدم علاج الاهم ثم عد واصلح ما افسدت والاقراص في آخر الحميات خير ما نقيت به المعدة واصلحت به العروق وقوي به الطحال لتتمكن من جذب العسكر ، لا سيما والذي وجده مولاي لبس الذنب فيه للحميات التي وجدها ، والبلدة التي وردها ، فهو صادف الهواء المغير جسداً نقياً من الفضول لما اثر هذا التأثير ، ولا طوّل هذا التطويل ، وانما اغتر مولاي بايام السلامة ، فكان يتبسط في انواع الطعام ، ويسرف في تناول الشراب فامتلأ الجسم من تلك الكيموسات الرديئة وورد بلداً شديد التحليل ، مضطرب الاهوية ، فوجدت النفس عوناً على حل ما انعقد ، ونقض ما اجتمع ، وسيتفضل الله بالسلامة فتطول صحبتها ، وتتصل مدتها ، لان الجسد يخلص خلاص الابريز اذا زال عنه الخبث وسبك ففارقه الدرن

واما الرعشة التي يتألم مولاي منها ، ويضيق صدرانها ، فليست

والحمد لله محذورة العاقبة ، وبها لتزول باقبال العافية ، فالرعشة التي تتخوف هي التي تعرض من ضعف القوة الحيوانية كما تعرض للمشايخ وتؤدي لمشاركتها الدماغ كثيراً من العظام ، فاما هذه التي تعتاد عقيب الحمى فهي على ما قال جالينوس من ان حدوثها يكون اذا شاركت العروق التي تحدث فيها علة العصب وتزول عنه بزوال العضل . وعجب مولاي من تكرهه شم الفواكه ولا غرو اذا عرف السبب ، فان العفونة التي في العروق قد طبقت روائحها آلات الشم ، فما يصل اليها من الروائح الزكية يرد على النفس مغموراً بتلك الروائح الخبيثة فتكرهها ، ولا تقبلها وتأباها ولا تؤثرها ، ألا يرى مولاي ان الاشياء الحلوة في فم ذي الصفراء يطعم الاشياء المرة لاستيلاء المرارة ، المضادة للحلاوة على آلات الذوق والمضغ والادرة ، وهذا راجع الى مثل ما حكمنا به أولاً من ان هناك فصلاً لا يمكن الهجوم على تحليله لما يخشى من سقوط القوة وان كان مما لم يحرج لم يوثق بوفور الصحة . وانا احمد الله اذ ليست شهوة سيدي متزيدة ، فالشهوة العالية مع الاخلاط الفاسدة ، تعري صاحبها بالاكل الزائد ، وتعرض للمزاج الفاسد ، الا ان التغذي لا يجوز اهماله دفعة ،

والتبرم به ضربة ، فان البدن اذا احتاج اليه وجب للعليل ان يتناوله تناول الدواء الذي يصبر عليه ، وذلك ان في دقة الحمية ، وترك الرجوع اول ناول الى عادة الصحة امانة للشهوة ، وخيانة للقوة . وجالينوس يشرط في العلاجات اجمع استحفاظ القوى لان الذي يفعله الضعف لا يتداركه أمر الا ان ذلك بازاء ما قال الحكيم الاول قراط في البدن السقيم انك متى مازدته غذاء زدته شراً ، وهو في نفسه يقول : ان الحمية التي في غاية الدقة ليست بمحمودة فالطرفان ، من الاسراف والاجحاف مذمومان ، والواسطة أسلم . اغنى الله مولاي عن الطب والاطباء ، بالسلامة والشفاء .

وكتب الى ابي العلاء الاسدي :

يقر بعيني ان يلم رسولها ... يبابي ويهدي بالعشي سلامها
ويذكر لي دون الرجال حديثها ... وينشر عندي نطقها وكلامها

ورد يا شيخي اطال بقاءك رسولك بكتاب سبق الافكار والظنون ، وحسدت عليه القلوب العيون ، وترك الواصفين بين قاصر ومقصر ، ومثل ليالينا بين اللوى فحجر ، بكلام كالورق

النضير تأوه[1] منه الغصون ، وكالنور المنير افنانه فنون ، فصادفني حليفاً للشوق أو رهيناً ، وحنينا على الحنين وساء قرينا ، وكيف لا وقد الفنا القرب احوالا حولنا رياض الادب ترف ، ودونا رواحل الفضل ترف ، نملك رقاب المنطق ، ونتنازع اطراف الكلام المنمق ، ونقطع الليالي تناشداً وتذاكراً ، وتحادثاً وتسامراً ، الى ان يخلع الظلام ثيابه ، ويحدر الصباح نقابه ، هذا دأبنا كان الى ان جاوزنا الشباب مراحل ، ووردنا من المشيب مناهل ، ثم حان الفراق فنحن حتى اليوم منه في جو كدر ، ونجم منكدر ، يقبضنا عن الموارد العذاب ، ويعرضنا على لواعج العذاب ، والله نسأل اعادة هاتيك الاحوال ، وتلك الايام الخضراء الظلال . وان كان الله قد زادنا بعدك مناجح ومنائح ، وابادي عوادي وروائح ، حتى فتحنا الفتوح ، وذللنا القروح ، ورتقنا الفتوق ، ونسخنا الفروق ، واثرنا الآثار ، ووطأنا الرقاب وطلبنا الثار ، واصطنعنا الصنائع ، وجعلنا ودائع النعم قطائع ، وعقدنا في أعناق الاحرار منّاً ، احسن من سبل الاحسان سبناً . انا قد تحملنا مشاقاً مالت على القوة للضعف ،

(١) كذا في معجم الادباء ولعل الصواب تتأود .

وتحاملت على الاشر بالوهن ، ودفعت الى معالجة خطوب تعجب الدهر من صبرنا عليها فخار ، وحين الزمان عند شجاعتنا لها فخار . وها انا أحوج ما كنت الى ان ارفه ، ولا استكره ، وقد رميت بسهم الاربعين ورميت على شرف الخمسين ، مدفوع الاشغال والانتقال الى متاعب ومصاعب لومني بها ابن ثلاثين قويا ازره طريا حرصه لقام عجزه وقعدت به نفسه وظنني كنت قديما قلت :

وقائلة لم عرتك الهموم ... وامرك ممتثل في الامم

فقلت دعيني وما قد عرى ... فان الهموم بقدر الهمم

وما على الراحة آسف بل على الا اكون مشغولا باخرى انهد لها واكدح ، واداب لنفسي وانصح ، اللهم وفق وقدر ، وسهل ويسر ، انك على ما تشاء قدير .

وكتب اليه أيضا :

ابا العلاء شيخي اين ذلك الميعاد ، واين تلك العهود سقتها العهاد ، واين ليالينا بحزوى ، وتصابينا على اروى ، بل اين الصبا وما ملك ، واين الشباب واية سلك ؟ واذ قد غاب جميع ذلك مغيب الخيال الطارق والضيف المفارق ، فاين كتبك التي هي الذ من انتهاء النفس الى رخائها ، وابتداء العين في اعفائها .

وكتب في اهداء اترجه : ما زلت يا سيدي افكر في تحفة تجمع اوصاف معشوق وعاشق ، وتنظم نعوت مشوق وشائق ، حتى ظفرت باترجة كأن لونها لوني وقد منيت ببعدك ، وبليت بصدك ، وكأن عرفها مستعار من عرفك ، وظرفها مشتق من ظرفك ، فكأنها بعض من لا اسميه ، وانا افديه ، فانفذتها وقلت :

مولاي قد جاءتك اترجة من بعض اخلاقك مخلوقه
البسها صانعها حلة من سرق اصفر مسروقه

وكتب في هداء اقلام : قد خدمت دواة مولاي باقلام تخفف بانامله ، وتحمل نفحات فواضله ، وتألقت في بريها فانت كمناقير الحمام ، واعتدال السهام ، خمسة منها مصرية مقومة ، عليها حلل مسهمة ، وعشرة منها بيض كاياديه ، وايام مؤملية ، والله يديم له مواد نعمته ، ويوفقني لشرائط خدمته .

وله من كتاب تعزية : وقلنا قد اخذ الزمان من اخذ ، وترك من ترك ، فهو لا شك يعفو عن القمر ، وقد اسلم الشمس للطفل ، ولا يصل الصروف بالصروف ، ولا يجمع الكسوف الى الخسوف ، فالى حكم السوين ، وقد غبنك

اذ قاسمك الاخوين ، الا ان تعود فيلحق الباقي بالفاني ، والغابر بالماضي .

وعاد في طلب المتروك تاركه ... تا تغفل والايام في الطلب
ما كان اقصر وقتاً كان بينهما ... كأنه الوقت بين الورد والقرب

اقول هذا كعادة المصدور في النفث ، وشكوى الحزن والبث ، والا فما يعجب السفر من تقدم بعض ، وكل بين الراحلة والرحل ، لا يترك الموت ساعياً على وجه الارض ، حتى ينقله الى بطن الترب .

نحن بنو الموتى فما بالنا ... نعاف ما لا بد من شربه
نخل ايدينا بارواحنا ... على زمان هن من كسبه
فهذه الارواح من جوه ... وهذه الاجسام من تربه

***

رقاع له في الاستزارة والوصف

١

هذا اليوم يا سيدي طاروني ، يعجبني نوؤه انفاحتي ، واذ قد غابت شمس السماء عنا ، فلا بد ان تدنو شمس الارض منا ، فان نشطت للحضور ، شاركتنا في السرور ، والا فلا اكره

ولا اجبار ، ولك متى شئت الاختيار .

٢

غداً يا سيدي بحسر الصيام ، وتطيب المدام ، فلا بد من ان نقيم سوق الانس نافقة ، وننشر اعلام السرور خافقة ، فبالفتوة فانها تسم للطراف ، يعرض حسن الاسعاف ، لما بادرتها ولو على جناح الرياح ان شاء الله تعالى .

٣

نحن يا سيدي في مجلس عني الأعنك ، شاكر الامنك ، قد تفتحت فيه عيون النرجس ، وتوردت فيه خدود البنفسج ، وفاحت مجامر الاترج ، وفتقت فارات النارنج ، وانطقت السنة العيدان ، وقام خطباء الاوتار ، وهبت رياح الاقداح ، ونفقت سوق الانس ، وقام منادي الطرب ، وطلعت كواكب الندماء ، وامتدت سماء الند ، فبحياتي لما حضرت ، لنحصل بك في جنة الخلد ، وتتصل الوسطة بالعقد .

٤

نحن وحياتك في مجلس راحه ياقوت ، ونوره در ،

ونارنجه ذهب ، وترجسه دينار ودرهم ، يحملها برجد ، والسنة العيدان تخاطب الطراف ، يهلم الى الاقداح ، لكنا بغيبتك كعقد غيبت واسطته ، وشباب اخذت جدته ، فاحب ان يكون اينا اسرع من الماء في انحداره ، والقمر في مداره

٥

مجلسنا يا سيدي مفتقر اليك ، معول في اعتاله عليك ، قد ابت راحة ان تصفو الا ان تتناولها يمناك ، واقسم غناؤه لا طاب او تعيه اذناك ، فاما خدود نارنجه فقد احمرت خجلاً لابطائك ، وعيون ترجسه فقد حدقت تأميلاً للقائك ، فحياتي عليك لما تعجلت ، لئلا يخبث من يومي ما طاب ، ويعود من همي ما طار

٦

صرنا يد الله مولانا في بستان كأنه من خلقه خلق ، ومن خلقه سرق ، فرأينا اشجاراً تتميل فتذكر بترع الاحباب ، وقد تداولتهم يدي الشراب ، وانهاراً كأنها من يد مولانا تسيل ، او من راحته تفيض ، وحضرنا فلان فعلا نجمنا ، وحمد امرنا ، وتسهل طريق الخير لنا ، فلما دبت الكؤوس فيهم دبيب البرء

في السقم ، والنار في الفحم ، رأى ان يجعل انسنا غداً عنده فقلت سمعاً ، ولم استحر لامره دفعاً ، وانمس ان احلقه في تجشيم مولاي الى المجمع ليقرب علينا متناول البدر بمشاهدته ، ولمس الشمس بمطالعته ، فان رأى ان يشفعني اسعفني ان شاء الله تعالى .

٧

انا على طرف بستان اذكرني ورده المتفتح بحلقك ، وجدوله السايح بطبعك ، وزهره الجني بقربك .

٨

علقت هذه الاحرف وانا على حافة حوض ذي ماء ازرق كصفاء ودي لك ، ورقة قوتي في عتابك ، ولو رأيته لانسيت احواض مارب ، ومشارب ام غالب . وقد قابلتني شقائق كالزنوج تجارحت فسالت دماؤها ، وضعفت فبقي ذماؤها ، وسامتني اشجار كأن بحور اغارتها اثوابها ، وكستها ابرادها ، وحضرتني ريحات ككرات من سفن ذهبت ، او ثدي بكار حلقت وقد تبرم بي الحاضرون لطول الكتاب فوقفت ، وكففت وصدفت ، عن كثير من مما له تشوقت .

٩

مضيت فشاهدت احسن منظر ، فالارض زمردة ، والاشجار وشي ، والماء سيوف ، والطير قيان .

١٠

كتب الى بعض ندمائه في يوم ثلج : كتبت والدنيا كافوره والدر نثير ، والكؤوس ندور ، والراح ياقوت احمر ، ونحن بين طاق البرد في ما نستغيث منه الى حر الراح ، بسورة الاقداح ، وهي خير من كل شعر ووبر .

* * *

فصول له ورقاع في الملاطفة والمداعبة

كتب في الاعتذار من هفوة الكأس : سيدي اعرف باحكام المروءة من ان يهدى اليها ، واحرص على عمارة سبل الفتوة من ان يحض عليها ، وقديماً حملت اوزار السكر ، على ظهور الخمر ، وطوى بساط الشراب ، على ما فيه من خطأ وصواب ، وكنت البارحة بعقب شكاة اضعفتني ، ونقلتني عن عادتي ، واستعفيت السقاة غير دفعة فابوا الا الحاحاً علي ، وانزعاجاً الي ، وكرهت الامتناع خشية ان اوقع الكساد في سوق

الانس ، وتفاديا من ان يعقد عليّ خنصر الثقيل ، فلما بلغت الحد الذي يوجب الحد ، بدر مني ما يبدر ممن لا يصحبه لبه ، ولا يساعده عقله وقلبه ، ولا غرو فموالاة الارطال ، تدع الشيوخ كالاطفال ، فان رأى ان يقبل عذري ، فيما جناه سكري ، ويهب جرمي ، لمعرفته بيتي في صحوي . وان ابى الا معاقبتي جعلها قسمين بين المدام وبيني فعل ان شاء الله تعالى .

وكتب مداعباً : خبر سيدي عندي وان كتمه عني ، واستأثر به دوني ، وقد عرفت خبره البارحة في شربه وانسه ، وغناء الضيف الطارق وعرسه ، « وكان ما كان مما لست اذكره » ، وجرى ما جرى مما لست انشره ، واقول ان مولاي امتطى الاشهب فكيف وجد ظهره ، وركب الطيار فكيف شاهد جريه ، وهل سلم على حزونة الطريق ، وكيف تصرف اي سعة ام ضيق ، وهل افرد الحج ام تمتع بالعمرة . وقال في الجملة بالكرة ؟ ليتفضل بتعريفي الخبر فما ينفعه الانكار ، ولا يغني عنه الا الاقرار ، وارجو ان يساعدنا الشيخ ابو مرة ، كما ساعده مرة ، فنصلي للقبلة التي صلى اليها ، ونتمكن من الدرجة التي خطب عليها . هذا وله فضل السبق الى ذلك الميدان ، الكثير الفرسان .

وكتب أيضاً : انفردت يا سيدي بتلك انفراد من يحسب مطلع الشمس من وجهها ، ومنبت الدر من فمها ، وملقط الورد من خدها ، ومنبع السحر من طرفها ، وحقاق العاج من ثديها ، ومبادي الليل من شعرها ، ومغرس الغصن في قدها ، ومهيل الرمل في ردفها ، وكلا فيها شوهاء وزهاء ، خرقاء خلقاء ، كأنما محياها ايام المصايب ، وليالي النوايب ، وكأنما قربها فقد الحبائب ، وسوء العواقب ، وكأنما وصلها عدم الحياة ، وموت الفجاة ، وكأنما هجرها قوة المنة ، وكأنما فقدها ريح الجنة

ومن كتاب له في المداعبة : الله الله في خيك لا تظهر كتابه فيحكم عليه بالماليخوليا وبالتخاييل الفاسدة فقد ذكر جالينوس ان قوماً يبلغ بهم سوء التخييل ان يقدروا اجسامهم زجاجاً فيتحسوا ملامسة الحيطان خشية ان يتكسروا ، وحكي ان قوماً يظنون انفسهم طيوراً فلا يغتذون الا بالفرطم والخط كتابي دفعة ثم مزقه فلا طائل فيه ، ولا عائد له ، ولا فرج عنده وعلى ذكر الفرج فقد كانت بهمدان شاعرة مجيدة تعرف بالحنظلية وخطبها ابو علي كاتب بكر فلما الح عليها والحف كتبت اليه :

. . . . . .

. . . . . .

هذه والله في هذين البيتين اشعر من كبشة - عمرو ، والخنساء اخت صخر ، ومن كعوب الهدبية ، وليلى الاخيلية .

وكتب الى ابي العلاء الاسدي : ذكرت ان ادهمك قطع الدهر رباطه ، او قطع الموت نياطه ، ووصفت الحمار الذي استعضته ، فلا ادري اقرطته ام عضضته ، وقد كتبت بابتياع مركوب لك يعبوب ، او يعسوب او مرحوب ، بل رسمت ان يقاد اليك في كبس عجز ، فان شئت فاتركه عندك اشهب والا فابتع به ادهم او اشقر ، والتوقيع درج كتابي فليوصل والنقد عند الحافر ، وبه يملك الخف والحافر ، ويجنب الاغر السائر ، والاقرح النادر .

وله من كتاب في العضائري : العضائري وما ادراك ما العضائري ، استراد الى الجمال جمالاً ، وعاد بدراً وكان هلالا ، فان شئت فالغصن ميالا ، وان شئت فالدعص منهالا

كأن جميع الناس يلقون وجهه ظرك المفتون والحب شامل
رويدك ان احببت فالغصن مائل وان تصب بعد الدعص فالدعص هائل

وهو يهدي اليك سلاما كرقة خده ، ونسيم عرفه وغزارة دمعك من بعده :

سلاماً كما رق النسيم على الصبا
وجاء رسول الورد في زمن الورد

تأبى ايها الشيخ الصالح ، الاّ ان تغمسنا معك في مزح المازح :

الا رب ذي مزح يجرك حبله وحبل التقى من قلبه محصد شرر

(فصل) وما الشأن الاّ في انك تتنقل في الهوى تنقل الافياء ، وتتميل في الحب كشارب الصهباء ، فمرة الغضائري حتى اذا حسبناك قد صرت له وصار لك ، وعلق بك وامله املك ابعث قديماً بحديث ، وتليداً بطريف ، واستهوتك حائل القلي فقمت تفتل في حبله ، وتحرص على وصله ، ثم تطمع ان تضم ضدا الى ضد ، وتجمع سيفين في غمد ، وهيهات ان الغضائري قد بلغه ذلك فازورّ وتنمر ، وغار وتنكر ، وقد كان له عزم في المسير الى اصبهان ففتر بفتور صبوتك ، وخف بظهور نبوتك .

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب الا للحبيب الاول

وقد جعله بعض الشعراء للحبيب الاخر وما نحن منشد لكثير :

اذا ما اردت خلة ان تزيلنا ... ابينا وقلنا الحاجبية اول

والله يسقي عهدك صوب العهاد ، ويعذبنا واياك على البعاد .

* * *

فقر من كلامه تجري مجرى الأمثال

من استمح البحر العذب ، استخرج اللؤلؤ الرطب

من طالت يده بالمواهب ، امتدت اليه السنة المطالب

من كفر النعمة ، استوجب النقمة .

من نبت لحمه على الحرام ، لم يحصده غير الحسام .

من غرته ايام السلامة ، حدثته السن الندامة .

من لم يهزه يسير الاشارة ، لم ينفعه كثير العبارة

رب لطائف اقوال ، تنوب عن وظائف اموال

الصدر يطفح بما جمعه ، وكل اناء مؤد ما اودعه

اللبيب تكفيه اللمحة ، وتغنيه اللحظة عن اللفظة .

الشمس قد تغيب ثم تشرق ، والروض قد يذبل ثم يورق ،

والبدر يأفل ثم يطلع ، والسيف ينبو ثم يقطع .

العلم بالتذاكر ، والجهل بالتناكر .

اذا تكرر الكلام على السمع ، تقرر في القلب

الضمائر الصحاح . تنبع من الالسنة الفصاح

الشيء يحسن في اناته ، كما ان الثمر يستطاب في اوانه

الآمال ممدودة ، والعواري مردودة .

الذكرى ناجعة ، وكما قال الله تعالى نافعة .

متن السيف ليّن ، ولكن حده خشن ، ومتن الحية الين ، وبابها اخشن

عقد المنن في الرقاب ، لا يبلغ الا بركوب الصعاب

بعض الحلم مذلة ، وبعض الاستقامة مزلة

كتاب المرء عنوان عقله ، بل عيار قدره ولسان فضله ، بل ميزان علمه

انجاز الوعد ، من دلائل المجد ، واعتراض المطل ، من امارات البخل ، وتأخير الاسعاف ، من قرائن الاخلاف

خير البر ما صفا وضعا ، وشره ما تأخر وتكدر

فراسة الكرم لا تبطي ، وقيافة الشرف لا تخطي .

قد ينبح الكلب القمر ، فليلقم النابح الحجر .

كم متورط في عثار ، رجاء ان يدرك بثار .

بعض الوعد كنقع الشراب ، وبعضه كلمع السراب .

قد يبلغ الكلام ، حيث تقصر السهام .

ربما كان الاقرار بالقصور ، انطق من لسان الشكور .

ربما كان الامساك عن الاطالة ، اوضح في الابانة والدلالة .

لكل امرئ امل ، ولكل وقت عمل .

ان نفع القول جميل ، والا نفع السيف صقيل .

شجاع ولا كعمرو ، ومندوب ولا كصخر .

لا يذهبن طبك تفاوت ما بين الشيوخ والاحداث ، والنسور والبعاث .

كفران النعم ، عنوان النقم .

جحد الصنائع ، داعية القوارع .

تلقي الاحسان بالجحود ، تعريض للشرود .

قد يقوى الضعيف ، ويصحو النزيف ، ويستقيم المائد ، ويستيقظ الهاجد .

للصدر نفثة اذا احرج ، وللمرء بتة اذا احوج

ما كل امرئ يستحب للمراد ، و يطيع يد الاوتياد .

قد يصلى البريء بالسقيم ، ويؤخذ البر بالاثيم .

ما كل طالب حق يعطاه ، ولا كل شائم سزن يسقاه .

ان الاحداث لا رياضة لهم بتدبير الحوادث .

ان السنين تغير السنن .

من ثقلت عليه نعمة خف وزنه ، ومن استمرت به الغرة طال حزنه

اطع سلطان اسمى ، دون شيطان الهوى

اعلم الملوك يحتاج الى وزير ، واشجع الناس يحتاج الى سلاح ، واجود الخيل يحتاج الى سوط ، واجود الشعر يحتاج الى ممن

مثل لملك نصاح د كان وزيره فاسداً كالماء الصافي لمير العذب الذي فيه التمسيح فلا يستطيع الانسان وروده وان كان سابحاً والى الماء ظامئاً حدوراً على نفسه .

اذا ادبر الامر كان العطب في الحيلة .

احسن ما يكون الحسن بجنب القبح .

ثلاثة تدل على عقول ربابها الهدية والكتاب والرسول .

ما احد رأى في ولده ما يحب الا رأى في نفسه ما يكره .

الصبر على حقوق الثروة اشد من الصبر على الم الحاجة .

الرزق مقسوم ، والحريص محروم ، والحسود مغموم ، والبخيل مذموم .

اذا كان الايجاز كافياً ، كان الاكثار عيباً ، واذا كان الايجاز مقصراً ، كان الاكثار بليغاً .

الخراج عمود الملك وما استقبل يمثل العدل ، وما ستدبر يمثل الجور .

اذا لم عط لا مستحقاً ، فكأني اعطيت عريباً .

مثل الكاتب مثل الدولاب اذ تعطل تكسر .

القلم الرديء كالولد العاق ، وكالاخ المشاق .

التصرف اعلى وصفي ، والتعلل اعفى وصفي .

ذل العزل يضحك من تيه الولاية .

الولاية وكل مدح ، والعزل وكل ذم .

موت في عز خير من حياة في ذل .

الحرب مجال ، وعثراتها لا تقال .

المكيدة ابلغ من النجدة ، والكيد انفع من الايد .

المكر حيلة من لا حيلة له .

لسلاح ثم الكفاح ·

السلاح زينة وعدة ·

لسلاح جنة الابدان ووقية الانفس ·

قد يعين الشجاع بلا سلاح ، ويشجع الجبان بالسلاح ·

لا تمنع عدوك السبيل في هربته ·

احتل للشمس و لريح ان تكونا معك لا عليك ·

اذا انلبت بالبيات فعليك بالثبات ·

محرض خير من الف مقاتل ·

للبل جنة الهارب ·

الفرار في وقته ظفر ·

الحرب اولها كلام ، وآخره اصطلام ·

ان الجبان حتفه من فوقه ·

عصا الجبان اطول ·

لقلم احد اللسانين ·

عقول الرجال تحت السنة اقلامهم ·

صورة الخط في الابصار سواد وفي البصائر بياض ·

وعاءة الخط زمانة الادب ·

القلم صائغ الكلام يفرغ ما يجمعه القلب ، ويصوغ ما يمسكه اللب .

الصاحي بين السكرى ، كالحي بين الموتى ، يضحك من عقلهم ، ويأكل من ثقلهم .

احق ما يكون السكران اذا تعقل .

من صلب الري من الفرات لم يخش الظمأ في ورده ، ومن قصد الكريم برجائه لم يحذر الخيبة في قصده .

من لم يتحرز من المكايد قبل هجومها ، لم ينجه الاسف عند وقوعها .

الناس بالذمم اعلق ، وروائعه بالحفظ احق

الاعتدال عدل ، والطريق الوسط امثل .

الرأي اقومه احكمه ، واشده اسده .

رب اجتهاد ، ابلغ من جهد ، ومكايد دقيقة المسارب ، انكى من حداد صقيلة المضارب ، ولطائف اقوال ، تنوب عن وظائف اموال ، وثاب عقول وعقود ، وقمع من بيت جيوش وجنود .

غش الكافي احمد من نصح الناقص .

الثناء الجميل لسان المساعي ، والبشر الحسن عنوان المعالي .

الاحجام في مواطنه كالاقدام في مواضعه ، والترك في ماكنه كالاخذ في مواضعه .

الراحة حيث تعب الكرام ودع ، لكنها اوضع ، والقعود حيث قام الاحرار اسهل ، لكنه اسفل .

اللبيب من الايماء يكفيه ، والايحاء يغنيه ، واللفظة تجزيه ، واللمحة تؤثر فيه .

السيد لا يروع القطيع بارضه ، والاسد لا يعدو على الفريسة في ظله .

الوقوف في مدارج التهم ذنب عظيم ، والدخول في شهاب الظن داء عقيم .

الطاعة سعيدة المطلع ، حميدة المرجع ، والعصيان ذميم الفاتحة ، وخيم العاقبة .

الثعالب لا تجسر على احياس الاسود ، والارانب لا تقدم على اغيال الليوث .

ان الحبال الشم ، والاطواد الصم ، لا تمال بحصدات القاذف ، ولا تحال بحمرات الحاذف .

الرجل احوّل من بني ارمة الاعداء عن الشحناء ، الى

للودة والصفاء ، لا من أحال الصديق ذ الاخاء ، الى حال الهجرة والبغضاء

الاغفال لا تؤمن عواقبه ، بل تحذر مصايبه .

تجارة الافضال رابحة ، وصفقة الاحسان راجحة

الشمس تحيي نوراً ، ولكنها تقتل حراً ، والماء يروي ، وقد يغيض فيردي .

خير الوعظ ماقضى بالارتداع ، قبل الايقاع ، وبالانزجار ، قبل الانكار .

اصطناع الاراذل ، وصمة في وجوه الافاضل .

لا بد للسرى على قمر ، وللربى من مطر .

هل يثبت التصنع لا قدر لاستكشاف ، ويستتر التعمل الاريب الاستشعاف .

لكل امر اجل ، ولكل وقت رجل .

عريسة الاسد ، لست من اماكن النقد .

ما انتفع بعلم رجل لم ينتفع بظنه ، ولا بفهم امرئ لم يصب بوهمه .

طلوع الشمس في ضمان غروبها ، ومكاره الايام في

اعقاب محبوبها، وعوري لابالي على شرف ارتجاعها، وودائع الدهر بعرض انتزاعها.

السكاكية لطسام الصلة، وقوام المقسة وملاك لمسرة، وعماد لمبرة.

دقيق علم الحوم لا يدرك، وجليله كثير الكذب.

***

ملح وطرف من الفاظه

اخبرني عن سفرتك، وعم حصل لها في سفرتك

وحست حراً يشبه قلب الصب ويذيب دماغ الضب.

انوب فيه نيابة الوكيل للكتبي، بل للملوك المشتري

قد تحملت مع يسير الفرقة، عظيم الحرقة، ومع قليل المعدة كثير الوحدة.

علي أن اقول، وما علي القبول.

لا اعترض بين الشمس والقمر، وبروص والمطر

اكره أن أمل، وقد قصدت أن أجل. واعق، وقد قصدت أن اقضي بالحق.

مرحباً بزائر لباسه حرير ، وانفاسه عبير ، زائر وجهه وسيم ، وريحه نسيم ، وفضله جسيم .

فلان بين سكري الشباب والشراب .

غصن طلعه نضير ، وليس له نظير .

خط أحسن من عطفات الاصداغ وبلاغة كالامل آذن بالبلاغ .

فقر كما جيدت الرياض ، وفصول كما تعازلت المقل المراض .

الفاظ كما نوّرت الاشجار ، ومعان كما تنفست الاسحار .

نثر كنثر الورد ، ونظم كنظم العقد .

كتابك رقية القلب السليم ، وغرة العيش البهيم .

كلام يدخل على الاذن ، بلا اذن .

فلان كريم ملء لباسه ، موفق مدّ أنفاسه ذو جد كعلو الجد ، وهزل كحديقة الورد ، عشرته الطف من نسيم الشمال ، على اديم الماء الزلال ، والصق بالقلب ، من علائق الحب .

شكره شكر الاسير لمن اطلقه ، والمملوك لمن اعتقه

اثنى عليه ثناء العطشان الوارد ، على الزلال البارد

قلب نعل ، وصدر دغل

وعده برق خلّب ، وروعان ثعلب .

فلان يتعلق بذيال المعاذير ، ويحمل على ذنوب المقادير .

وأما شيخنا ابو القاسم الزعفراني ايده الله فصورته لديّ صورة لاح ، أو وده ارسخ ، ومحله محل العم ، او اشتراكه اعم .

وأما قصيدة ابي طاهر بن ابي الربيع ، فاحسن من الربيع ، وانها وثيقة الجزالة ، انيقة الاصالة ، تنطق عن ادب مهد الاسر ، شديد الازر ، وله عندنا اسلاف بر ارجو ان لا تبقى في ذمتنا حتى نقضيها ، فوعد الكريم ، الزم من دين الغريم .

خط أبي الفرج يبهر الطرف ، ويفوت الوصف ، ويجمع صحة الاقسام ، ويزيد في نخوة الاقلام .

فلان اثقل من القدح الاول .

هما خليطان من ماء الغمامة والخمر .

دارك لي جنة ولكن بوابها مالك الجحيم .

وطيء النجم بقدمه ، وسبق القدر بتقدمه .

نشط مولانا لتناول مايسمد الانس ، ويستجلب البشر ، ويشرح الصدر .

ما يجمع شمل الاخوان ، ويفرق نوازع الاحزان « يكنى بذلك عن اللهو والشراب »

النثر يتطاير تطاير الشرر ، والنظم يبقى كالنقش في الحجر .

ريق العذول سم قاتل

نبيذ الكاس ، يعرك اذن الوسواس .

رب عذول في ظاهر اهل السمت ، وباطن اهل السبت .

الخمر صابون الهم .

الراح كيمياء الافراح .

دماء الكرم للرجل الكريم .

وقال في عبد الصمد بن بابك : وما ابن بابك ، وكثرة غشيانه بابك ، فانما تغشى منازل الكرام ، ومنهل العذب كثير الزحام

حظ كالمقل المراض ، والاقبال بعد الاعراض

الفاظ ، كغمزات الالحاظ ، ومعان ، كلها قلب عان ، استعارت حلاوة العتاب ، بين الاحباب ، واسترقت تشاكي العشاق ، يوم الفراق .

الفاظ لها من الهواء رقته ، ومن الماء سلاسته ، ومن السحر نفثته ، ومن الشهد حلاوته .

كلام كبرد الشباب ، وبرد الشراب

كلام يهدي الى القلوب روح الوصال ، ويهب على النفوس هبوب الشمال .

القط حسبتها لرقتها مسوخة من صحيفة الصبى ، وظننتها لسلاستها مكتوبة من املاء الهوى

كلام كما هب نسيم السحر ، على صفحات الزهر ، ولذة طعم الكرى بعد نزح السهر .

كلام يقطر صرفاً ، ويمزج الراح لطفاً كلام كنسيم الصبا ، وعهد الصبى .

كلام هو سحر ، بلا سهر ، وصفو بلا كدر .

كتاب اوحى من الاعتدد ، ووفر من الاعتداد ، واودع بياض الوداد ، سواد الفؤاد .

كتاب انسني سماع الاغاني ، من مطربات الغواني .

كتاب رأيت فيه ساعة الاوبة على المسافر ، وبرد الليل على المسامر .

كتاب شممته شم الولد ، والصقته بالقلب وكبد

كتاب مطلعه مطلع هلة الاعياد ، وموقعه نيل المراد .

ونال في شعر عضد الدولة . قرأت الابيات التي سفر عنها طبع المجد والقاها بحر العلم على لسان الفضل ، فعلمت كيف تنكسر الزهر على الحدائق ، وكيف يغرس الدر في أرض المهارق.

تذكرت اياماً فتذكرت سحراً وسيماً ، وعيشاً حسيماً ، وراحاً وريحاناً ونعيماً ، وخيراً عميماً ، وابتهاجاً مقيماً ، وياماً حسنة فكأنها أعراس ، وبصيرة فكأنها انفاس.

توقيعاته

اهدى العميري قاضي قزوين الى الصاحب كتباً وكتب معها:

العميري عبد كافي الكفاة ومن اعتد في وجوه القضاة
خدم المجلس الرفيع بكتب مفعمات من حسنها مترعات

فوقع تحتها:

قد قبلت من الجميع كتاباً ورددنا لوقتها الباقيات
لست استغنم الكثير فطبعي قول خد ليس مذهبي قول هات

وكتب اليه بعض العلوية يخبر بانه رزق مولوداً ويسأله

ان يسميه ويكنيه فوقع في رقعه اسعدك الله بالفارس الحديد ، وطالع السعيد ، فقد والله ملأ لعيني قرة ، ونفسي مسرة مستقرة ، والاسم علي لبعلي الله ذكره ، والكنية بو الحسن ليحسن الله امره ، فاني أرجو له فضل جده ، وسعادة جده ، وقد بعثت لتعويده دينارا من مائة مثقال ، قصدت به مقصد الفال ، رجاء ان يعيش مائة عام ، ويخلص خلاص الذهب الابريز من ثوب الايام والسلام.

وكتب اليه ابو منصور الجرجاني :

قل للوزير الرتجي كافي الكفاة المنتجى
اني رزقت ولدا كالصبح اذ تبلجا
لازال في ظلك ظل لمكرمات والحجى
فسمه وكنه مشرقا مثوجا

فوقع تحته :

هنيئة هنيئه شمس الضحى بدر الدجى
فسمه محمدا وكنه با الرجا

وكتب اليه ابو حفص الوراق الاصبهاني : لولا ان الذكرى اطال الله بقاء مولانا الصاحب الجليل تنفع

المؤمنين ، وهزه الصمصام نعين المصلتين ، لما ذكرت ذكرا ، ولا هززت ماضيا ، ولكن ذا الحاجة لضرورته يستعجل النجح ، ويكد الجواد السمح ، وحال عبد مولانا دام الله تأييده في الحنطة مختلفة ، وجرذان داره عنها منصرفة ، فان رأى ان يخلط عبده بمن اخصب رحله ، ولم يشد رحله ، فعل ان شاء الله .

فوقع الصاحب تحتها : احسنت انا خفض قولاً ، وسنحسن فعلاً ، فبشر جرذان دارك بالخصب ، وآمنها من الجدب ، فالحنطة تأتيك في الاسبوع ، ولست عن غيرها من النفقة بممنوع ، ان شاء الله تعالى .

وكتب بعض اصحاب الصاحب رقعة اليه في حاجة فوقع فيها وما ودت اليه لم ير فيها توقيعاً وقد تواترت الاخبار بوقوع التوقيع فيها فعرضها على ابي العباس الضبي فما زال يتصفحها حتى عثر بالتوقيع وهو الف واحدة وكان في الرقعة فان رأى مولانا أن ينعم بكذا فعل فاثبت الصاحب أمام فعل الفا يعني افعل .

وكتب بعض العمال رقعة الى الصاحب في التمس شغل وفي

الرقعة ان رأى مولانا أن يأمر بإشغالي ببعض أشغاله فوقع تحتها : من كتب إشغالي لا يصلح لأشغالي .

ورفع الضربون من دار الضرب قصة الى الصاحب في ظلامة لهم مترجمة بالضرابين فوقع تحتها : في حديد بارد .

وكتب انسان الى الصاحب رقعة وقد اغار فيها على رسائله وسرق جملة من الفاظه فوقع فيها : «هذه بضاعتنا ردت الينا» .

ووقع في رقعة استحسنها : «افسحر هذا أم انتم لا تبصرون» .

ووقع في كتاب بعض مخالفيه : «ويل لهم مما كسبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون»

ووقع في رقعة ابي محمد الخازن وكان ذهب مغاضباً ثم كتب اليه يستأذنه في معاودة حضرته : «لم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت» .

وكتب اليه ابو العباس نصيبي يشفع بابي محمد الخازن فورد اليه هذا التوقيع : ذكر مولاي ادام الله عزه عود ابي محمد الخازن ايده الله للفناء الذي فيه درج ، والوكر الذي منه خرج ، وقد علم الله ان اشفاقي عليه في اغترابه ، لم يكن باقل منه عند ايابه ، فان احب ان يقيم مدة يقضي فيها وطر الغائب ، ويضع

معها اوزار الآيب ، فليكن في ظل من مولانا ظليل ، ورأي منه جميل ، وبر من ديواننا جليل ، وان حفزه الشوق فرحاً بمن قربته التربية لدينا ، فافسدته العزة علينا ، وردته التجربة الينا ، وسبيله ان يرفد بما يزيل شغل قلبه بعياله ، ويعينه على كل ارتحاله ان شاء الله تعالى .

ووقع الصاحب في رقعة لابي الحسن الشقيقي البلخي : من نظر لدينه نظرنا لدنياه فان آثرت العدل والتوحيد ، بسطنا لك الفضل والتمهيد ، وان اقمت على الجبر ، فليس يكسرك من جبر .

ووقع في رقعة بعض خطاب الاعمال : التصرف لا يلتمس بالتكلف ، ان احتجنا اليك صرّفناك ، والا صرفناك .

ورفع اليه بعض منهي الاخبار ان رجلاً ممن ينطوي له على غير الجميل يدخل داره في عمار بلس ثم يتلوّم على استراق السمع فوقع : دارنا هذه خان ، يدخلها من وفى ومن خان

امثلة من شعره

الادب والحكمة

وقائلة لم عرتك الهموم ... وامرك ممتثل في الامم
فقلت دعيني على غصتي ... فان الهموم بقدر الهمم

***

لقد صدقوا وبرقصات الى منى ... بان مودات العدا ليس تنفع
ولو انني داويت دهري حيه ... اذا استمكنت يوماً من اللسع تلسع

***

اذا ادناك سلطان فزده ... من التعظيم واحذره وراقب
فما السلطان الا البحر عظماً ... وقرب البحر محذور العواقب

***

كم نعمة عندك موفورة ... لله فاشكر يا ابن عباد
قم فالتمس زادك وهو التقى ... لن تسلك الطرق بلا زاد

***

حق العيادة يوم بعد يومين ... وجلسة مثل رد الطرف في العين
لا تبرمن مريضاً في مسألة ... يكفيك من ذاك تسأل بحرفين

***

الوصف

قال في الخمر :

رق الزجاج ورقت الخمر فتشابها فتشاكل الامر
فكأنه خمر ولا قدح وكأنها قدح ولا خمر

وقال :

وقهوة قد حضرت بختمها فقلت للندمان عند شمها
لا تقبض بالماء روح جسمها فحسبها ما شربت من كرمها

وقال :

متغايرات قد جمعن وكلها متشاكل اشباحها ارواح
واذا اردت مصرحاً تفسيرها فالراح والمصباح والتفاح
لو يعلم الساقي وقد جمعن لي من أي هذي يملأ الاقداح

وقال :

ولما بدا التفاح احمر مشرقاً دعوت بكأسي وهي ملأى من الشفق
وقلت لساقيها ادرها فانها خدود عذارى قد جعلن على طبق

وقال :

وكأس تقول العين عند جلائها أهل خدود الغانيات عصير ؟

تحاميتها الا نفس واصف وقد يطرب الانسان وهو كبير

وقال :

وصفراء او حمراء وهي مخيلة لرقتها الا على المتوهم
تشككنا في الكرم ان انتماءه الى الخمر ام هدنا الى الكرم تنتمي

ومنها :

تمتع ندمان بها واجبة وحظي منها ان اقول الا نعمي
تلك الوصف دون القصف مني فخيمي
بغير يدي وارضي بما قاله فمي

وقال يصف الثلج :

اقبل الثلج فانبسط للسرور ولسرب الكبير بعد الصغير
اقبل الجو في غلائل نور وتهادى بلؤلؤ منثور
فكأن السماء صاهرت الار ض فصار انتثار من كافور

وقال :

هات المدامة يا غلام معجلا فالنفس في قيد الهوى مأسوره
او ما ترى كانون ينثر ورده وكأنما الذيب به كافوره

وقال :

هات المدامة يا غلام مصبرا نقلي عليها قبلة اوعضه

او ما توى كانون ينثر ورده وكأنما الفيا سبيكة فضه

وقال في الند :

نه لفخر الدولة استعماله قد زاد عرفاً من نسيم يديه
فكأنما عضوه من اخلاقه وكأنه طيب الثناء عليه

وقال في حبة عنب :

وحبة من عنب من لدني متخنه
كأنها لؤلؤة في وسطها زمرده

وقال :

وحبة من عنب قطفتها تحسدها العقود في التوائب
كأنها من بعد تمييزي لها لؤلؤة قد نقبت من جانب

وقال في التين :

تين يزين رواؤه محبوره متحير في وصفه يتحير
عسل اللصب لديه ما يجتوى وحنى العجيل لديه مر محقر
وكأنما هو في ذرى اغصانه قطع ابضان ادارهن مدور
ويقول ذائقه لطيب مذاقه الله أكبر والخليفة جعفر

وقال في الشمع :

ورائق القصد مستحب يجمع اوصاف كل حسن

صفرة لون وسكب دمع ... وذوب جسم وحر قلب

وقال في الخط واللفظ :

بالله قل لي اقرطاس تخط به ... في حلة هو ام لبسته حللا

بالله لفظك هذا سال من عسل ... ام قد صبت على افواهنا العسلا

وقال في فلاة :

وتيهاء لم تطمث بخف وحافر ... ولم يدر فيها النجم كيف يغور

معالمها ان لا معالم بينها ... وآياتها ان المسير غرور

ولو قيل بلغت انفها ما اهتدى لها ... ولو ظل ملء الارض وهو جزور

تجشمتها والليل وجف جناحه ... كأني سر والظلام ضمير

وقال في الوحل :

اني ركبت وكف الارض كاتبة ... على ثيابي سطور أنيس تنكتم

فالارض محبرة والحبر من لثق ... والطرس ثوبي ويمنى الاشهب القلم

وقال في الصدغ :

يا شادنا في صدغه عقرب ... ما يستجيب الدهر للراقي

يسلم خده على لدغها ... ولدغها في كبدي باقي

وقال :

وعهدي بالعقارب حين تشتو ... تخفف لدغها وتقل ضرا

فما بال الشتاء أتى وهدي عقارب صدغه تزداد شرا

وقال في العذار :

رأيت عليا في لباس جماله فشاهدت منه الروض ثاني مرنه
ولما تبدى لي امتداد عذاره رأيت طراز الله في ثوب حسنه

وقال :

ان كنت تنكره فالشمس تعرفه او كنت تظلمه فالحسن ينصفه
ما جاءه الشعر كي يمحو محاسنه وانما جاءه عمداً يغلفه

وقال :

دب العذار على ميدان وجنته حتى اذا كاد ان يسعى به وقفا
كأنه كاتب عز المداد له اراد يكتب لاما فابتدا لفا

وقال :

عذار كالطراز على الطراز وشمس في الحقيقة لا مجاز
تبدى عارضاه فعارضاني وقالا لا تمر بلا جواز
فقلت القلب عندكم مقيم وما حسن الثياب بلا طراز

وقال :

انظر اليه كأنه شمس وبدر حين اشرف
والحظ محاسن خده تعذر دموعي حين تذرفه

فكأنها الواوات حين يخطها قلم محرف

وقال :

ابو نصر بن بكران مليح الخد والخط
فهذا النمل في العاج وذاك البدر في السمط

وقال :

ان لبس السواد قوى دليل لامير يلي امور العباد
وامير الملاح يأتيه عزل حين تلقاه لابساً بالسواد

وقال في الخط :

وخط كأن الله قال لحسنه تشبه بمن قد خطك اليوم فأتمر
وهيهات اين الخط من حسن وجهه
واين ظلام الليل من صفحة القمر

واتي الصاحب بغلام مثاقف فلعب بين يديه فاستحسن صورته واعجب بمثاقفته فقال لاصحابه قولوا في وصفه فلم يصنعوا شيئاً فقال :

ومثاقف في غاية الحذق فاق حسان العرب والشرق
شبهته والسيف في كفه بالبدر اذ يلعب بالبرق

وقال في الشيب

تقول يوماً حبذا ما نالها قد عرضتني عند شيبي للاذى
تقول سحقاً بعد ان كانت وكنـ ـت كحل عينيها فصرت كالقذى

***

العزل

تسحب ما ازدت على الصباح فهم ليل وانت جو الصباح
لقد اولاك ربك كل حسن وقد ولاك مملكة الملاح
وبعد فليس يحضرني شراب فانعم من رضابك لي براح
وليس لدي نقل فارتهني بنقل من ثناياك الوضاح

وقال :

لا ترجوا اصلاح قلبي بلوم خلف الجفن لا ستقل بنوم
وهو ما لئن تأخر عني طول يومي في سيحضر يومي

وقال :

علي كالغزال وكالغزاله رأيت به هلالا في غلاله
كأن بياض غرته رشاد كأن سواد طرته ضلاله
كأن الله ارسله نبيا وصير حسنه اقوى دلاله
اذا ما زدت وصلا زدت خبلا كان حبال وصلك لي حباله

وقال :

هـذا علي علي في محاسنه ... كأنما وصفه ان يبلغ الاملا
وكم اقول قد ابصرت طلعته ... هذا الذي في طراز الله قد عملا

وقال :

قل لابي القاسم ان جئته ... هنيت ما اعطيت هنيته
كل جمال فائق رائق ... انت برغم البدر اوتيته

وقال :

قل لابي القاسم الحسني ... يا نار قلبي ونور عيني
البدر زين السماء حسناً ... وانت زين لكل زين

وقال :

ومهفهف يغني عن القمر ... قمر الفؤاد بفاتن النظر
خالسته تفاح وجنته ... من غير ابقاء ولا حذر
فاجافني قوم فقلت لهم ... «لا قطع في ثمر ولا كثر»

وقال :

الحب سكر خماره التلف ... يحسن فيه الذبول والدنف
عابوه اذ لج في تصلفه ... والحسن ثوب طرازه الصلف

وقال :

وشادن يكثر من قول لا اوقع قلبي في ضروب البلا
قلت وقد تمني طرفه هذا هو السحر ولا فلا

وقال :

وشادن ذي غنج طاوي الحشا معتدل
نشدته شعراً بديـ ـعاً حسناً من عملي
فقال فيمن ولمن فقلت هذا فيك لي
فطار في وجنته شعاع نار الخجل

وقال :

قد قلت لما مرّ يخطر ماشيا والناس بين معوذ أو عاشق
لم يكف ما صنعت شقائق خده حتى تلبس حلة بشقائق

وقال :

دعتني عيناك نحو الصبا دعاء يكرر في كل ساعه
ولولا تقادم عهد الصبا لقلت لعينيك سمعاً وطاعه

وقال :

شتمت من تيمي مغالطاً لاصرف العاذل عن لجاجته
فقال لما وقع البرار في الك وب علمت انه من حاجته

وقال :

يا قمرا عارضني على وجل وصاله يشبه تأخير الاجل
وقال تبغي قبلة على عجل قلت أجل ثم أجل ثم أجل

وقال:

وشادن في الحسن كالطاوس خلافه كليلة العروس
قد نال بالحظ من النفوس ما لم تنله الروم من طرسوس

وقال:

بدا لنا كالبدر في شروقه يشكو عزالاً لج في عقوقه
يا عجبا والدهر في طروقه من عاشق حسن من معشوقه

وقال:

عزمت على القصد يا سيدي لفضل دم كطأني مؤلم
فلما تأخرت عن مجلسي ارقت بغير اقتصاد دمي

وقال:

ومهفهف شكل المجون ضنى فؤادي بالفنون
فنسيمه ملء الانو ف وحسنه ملء العيون

وقال:

فمن كان يقطف ورد الجنا ن فقطفي مذ كنت ورد الخدود
وهمي مذ كنت در الثغو ر اذا أهتم غيري بدر العقود

وقال :

كنا واسباب الهوى مفتقه ... نبتاً من الورد معا في ورقه
فالآن اذ اسبابه مفترقه ... قد صارت الارض علينا حلقه

وقال :

يا خاطرا يخطر في تيهه ... ذكرك موقوف على خاطري
ان لم تكن آثر من ناظري ... عندي فلا متعت بالناظر

وقال :

تأخرت عني والغرام غريم ... وما مل قرب الاكرمين كريم
واوهمتني سقماً وانت مصحح ... بلى لك عهد كيف شئت سقيم
ولو شئت لم تخلط وصالاً بهجرة ... كما شب بالماء الزلال حميم
ففي الدهر كاف ان يفرق انه ... وصي ظلوم والكريم يتيم

وقال

ومهفهف حسن الشمائل اهيف ... تردى النفوس بفترتي عينيه
ما زال يبعدني ويؤثر هجرتي ... فجذبت قلبي من اسار يديه
قالوا تراجعه فقلت بديهة ... قولا اقيم مع الروي عليه
والله لا راجعته ولو انه ... كالشمس او كالبدر او كبويه

وقال :

ولم اخلع عذاري فيك الا ... لما عاينت من حسن العذار
وكم انصرت من حسن ولكن ... عليك من الورى وقع اختياري

وقال ويروي لغيره :

وشاعد وجدي عليه كردفه ... وعدا اصطباري في هواه كخصره
وكأن يوم وصاله من وجهه ... وكأن ليلة هجره من شعره
ان ذقت خمراً خلتها من ريقه ... أو رمت مسكاً نلته من نشره
واذا تكبر واستطال بحسنه ... فعذار عارضه يقوم بعذره

وقال في صبّاح الحاجب :

خده ورد وصدغه سبج ... ومقلتاه الماء والراح
ان هز اطرافه على نغم ... شفت جيوب وطاح رواح
وجملة القول في محاسنه ... ان مير الصباح صبّاح

وقال :

وشادن قلت له ما اسمكا ... فقال لي يا نغنج غاث
فصرت من لثغته الثغا ... فقلت أين الكاث والطاث

وقال :

لقد قلت لما اتوا بالطبيب ... وصادفني في اخر اللهيب
وداوى فلم انتفع بالدوا ... ء دعوني فان طبيبي حبيبي

ولست أريد طبيب الجسو م ولكن اريد طبيب القلوب
وليس يزيل سقامي سوى حضور الحبيب وبعد الرقيب

***

ملح من اخوانياته

كتب الى ابي الفضل بن شعيب :

يا ابا الفضل لم تأخرت عنا فاسأنا بحسن عهدك ظنا
كم تمنت نفسي صديقاً صدوقاً فاذا انت ذلك المتمنى
فبغض الشباب لما تبنى وبعهد الصبا وان بان منا
كن جوابي اذا قرأت كتابي لا تقل للرسول كان وكنا

وكتب الى ابي بكر الخوارزمي :

سعدك الله بيوم النصح وعشت ما شئت بيوم سمح
يا رأس مالي في الورى وربحي وصغري ونصرتي ونجحي
شربا ولا تصغ لاهل النصح فالحزم ان تسكر قبل الصحي
سكر النصارى في غداة الفصح

وكتب الى ابي القاسم القاشاني :

يا ابا القسم قل لي قل لماذا لا تزور
كنت قد قدمت وعداً فاذا وعدك زور

وبذرت الود بالقو ... ل فلم ترك النزور
ونحرت الود بالهجـ ... ـر كما يهدى الجزور
ان ام الصدق في الود ... لمقلاة نزور

وكتب اليه أيضاً :

مولاي لم لم تدع عنـ ... ـدك عندك احضار المدام
اعرفته من بينهم ... متبسطاً وقت الطعام
ام قيل عربد ذات يو ... م حين صار الى الطعام
ام لم يساعد حين ملـ ... ـت الى الغلامة والغلام
ان كنت تبخل بالطعا ... م فكيف تبخل بالكلام
لسنا نحاول دعوة ... فاسمح علينا بالسلام

وقال :

لو فتشوا قلبي رأوا وسطه ... سطرين قد خطا بلا كاتب
حب عليّ بن ابي طالب ... وحب مولاي ابي طالب

وقال :

يا ابن يعقوب يا نقيب البدور ... كن شفيعي لي فتى مسرور
قل له ان للجمال زكاة ... فتصدق بها على المهجور

وكتب الى ابي العلاء الاسدي يكني عن الجرب :

انا العلا يا هلال الهزل والجد كيف النجوم التي يطلعن في الخلد
وباطن الجسم عز مثل ظاهره وانت تعلم مما قلته قصدي

وقال في انفاذ الحلواء :

حلاوة حبك يا سيدي تسوغ لعني اليك الحلاوه

وقال :

قولوا لاخواننا جميعاً من كلهم سيد طرزا
من لم يعدنا اذ مرضنا ان مات لم نشهد المعزى

وقال لمحمود التاجر :

طويت محموداً على جفوته مخلصاً نفسي من خلته
قدرته يقلق من علتي مثل الزعاجي كان من علته
لم يأت بابي لا ولا مر بي كأن سقمي كان من شهوته
من لم يطالعني على علتي ان مات لم امض الى تربته

وقال للقاضي ابي بشر الجرجاني :

يصد الفضل عن أي صد وقال يأخوي عن ضعف معده
فقلت له جعلت العين واواً فان الضعف جمع في لموده

وقال :

بعدت فطعم العيش عندي علقم ووجه حبيبي مذ تغيبت ارقم

فمالك قد ادعمت قربك في النوى ... وودك في غير النداء مرخم

وكتب ابو هاشم العلوي الطبري الى الصاحب :

دعوت به الناس شهراً محرماً ... ليدفع سقم الصاحب المتفضل

الى بدني او مهجتي فاستجب لي ... فها انا مولاك من السقم بمثلي

فشكراً لربي حين حول سقمه ... اليّ وعافاه ببرء معجل

واسأل ربي ان يديم علاءه ... فليس سواه مفزع لبني ثلي

فاجابه الصاحب

انا هاشم لم ارض هاتيك دعوة ... وان صدرت عن مخلص متطول

فلا عيش لي حتى تدوم مسلماً ... وصرف الليالي عن ذراك بمعزل

فان نزلت يوماً بجسمك علة ... وحاشاك فيها يا علاء بني علي

فناد بها في الحال غير مؤخر ... الى جسم اسمعيل دوني تحوّلي

وقال مجيباً على قصيدة :

عناني من الهم ما قد عناني ... فاعطيت صرف الليالي عناني

الفت الدموع وعفت الهجوع ... فعيناي عينان لصاحبان

ومنها :

اتتني بالامس ابياته ... تعلل روحي بروح الجنان

كبرد الشباب وبرد الشراب ... وظل الامان ونيل الاماني

وعهد الصبى ونسيم الصبا ... وصفو الدنان ورجع القيان
فلو ان الفاظه حسمت ... لكانت عقود نحور الغواني
فياليت عمري في عمره ... يزاد ولو انه حقبتان
اجبت عن الشعر مسترسلا ... بطبع شجاع وقلب جبان
ولولا سكوني الى فضله ... قبضت بيدي بقبضي لساني

***

المديح

قال من قصيدة في عضد الدولة :

سعود يجار المشتري في طريقها ... ولا تتأتى في حساب المنجم
وكم عالم احييت من بعد عالم ... على حين صاروا كالهشيم المحطم
فوالله لولا الله قال لك الورى ... مقال النصارى في المسيح ابن مريم
محامد لو فضت لفاضت على الورى ... لما ابصرت عيناك وجه مذمم
وكلا ولكن لو حظوا بزكاتها ... لما سمعت اذناك ذكر ملوم
ولو قلت ان الله لم يخلق الورى ... لغيرك لم احرج ولم اتأثم

وقال من أخرى :

همام رأى الدنيا سواما فخاطها ... ليالي في غبر الزمان وقور ؟
ولم يخطب الدنيا احتفالا بقدرها ... فموقعها من راحتيه يسير

ولكن له طبع الى الخير سابق ورأي بآراء الرجال بصير
وان لم يلاحظهم بعين حمية فتلك امور لا تزال تمور

ومن اخرى :

يا ايها الملك الذي كل الورى فسمان بين رجائه وحذاره
فتناصح قد فاز سهم طلابه ومداهن قد خال قدح قماره
هذي مخاري تشتكي الم الصدى وتقول قولا ثبت في اخباره
ماذا عليه لو يهم بعرصتي فاكون بعض بلاده ودياره

وكتب الى مؤيد الدولة ابي منصور :

سعادة ما بالها قط احد يحوزها المولى الهمام المعتمد
مؤيد الدولة وابن ركنها وابن اخي معزها بخو لعضد

وقال في فخر الدولة وقد اقتصد :

يا ايها الشمس الا ان طلعتها فوق السماء وهذا حين يقتصد
لما اقتصدت قضينا للعلا عجبا وما حسبت ذراع الشمس يقتصد

وقال فيه لما بنى قصره بجرجان :

يا بانيا للقصر بل للعلا همك والفرقد سيان
لم تبن هذا القصر بل صنته تاجا على مفرق جرجان
وقصرك المبني من قبله ملكك والله هو الباني

فاقبل نثار العبد بل نظمه ... فتة والدر مثلات
واسمع مقالا لم يقل مثله ... مذ كانت الدنيا لانسان
لو كان للخلق آلهان ... لكان فخر الدولة الثاني

وقال :

هذي المكارم و لعليه تفتخر ... يوم مأثرة ساعاته عرر
يوم تبسم عنه الدهر واجتمعت ... له السعود واغضت دونه الغير
حتى كأنا نرى في كل ملتفت ... روضا تفتح في اثنائه الزهر
لما تجلى عن الآمال مشرقة ... قال العلى بك استعلي واقتدر
واقى على غير ميعاد يبشرنا ... بان سنبعه امثاله الاخر
اهنا المسرات ماجاءت مفاجأة ... وما تناحت بها الالفاظ والفكر
لو ان بشرى تلقتها موردها ... لأقبلت نحوها الارواح تبتدر
ومن تصفف من يسخو بمهجته ... دون يومك هذا وحده عمر
ما غدوت وما للعين مقلب ... الا لى منظر يبهى ويحتبر
تنت مهابتك الابصار حاسرة ... حتى تبين في الحاظها حذر
اذا تأملتهم عضوا وان نظروا ... خلالى ذلك فادنى لفتة نظروا
في ملبسي ما رأته عين معترض ... فشك في أنه اخلاقك الزهر
اقتبسته منك نورا يستضاء به ... كما أضاء صواحي مزنه القمر

وقد تقلدت عصباً أنت مضرابه ... وعنك بأحد ما يأتي وما يذر

مازال يزداد من اشراق غرته ... زهراً ويشرق فيه التيه والاشر

والشمس تحسد طرفاً انت راكبه ... حتى تكاد من الافلاك تنحدر

حتى لقد خلت ان الشمس ازعجها ... شوق فطلب على عطفيه تنتثر

وقال في بني المنجم :

لبني المنجم فطنة بهيه ... ومحاسن عربية عجميه

مازلت أمدحهم وانشر فضلهم ... حتى تهمت بشدة العصبيه

وقال في ابي هاشم العلوي الطبري

ان ابا هاشم يد الشرف ... مادحه آمن من السرف

حل من المجد في اواسطه ... وخلف العالمين في طرف [1]

* * *

الهجاء

قال في ابن متويه :

يا فتى متويه رفقاً ... لست من ينكر اصله

انما ينكر منه ... من جنون فيه ثقله

---

(١) انظر ص ٧ و٨ و٩ و١٠ من هذا الكتاب فهناك مدائح قالها الصاحب في ابن اسمعيل كما ان تفاريق من شعره ونثره وردت في اثناء الكتاب لاقتضاء المحل فلم ار حاجة لاعادة نقلها في فصلين المعقودين لنثره وشعره .

انت تذل من كرام انت في الطاوس رجله

وقال :

ابوك ابو علي ذوعلاء اذا عد الكرام وانت نجله
وان بالك اذ تعزى اليه كالطاوس يقبح منه رجله

وقال :

احمد هذا سبط متويه ـــيء موته بعد غد تهنيه
والشأن في اني على بغضه احتاج أن أقعد للتعزيه

وقال :

سبط متوي ان دارك دار قد عرفت الادبار اذ تدنيها
لا تكثر تزويقها وترفق عن قليل يكون قبرك فيها

وقال فيه :

كلما زدت عتاباً زدت في هجرك بتا
أو ترى طبعي غيضاً او ارى جسمك ميت

وقال في الغويري :

ان الغويري له نكهة تنتنها اربت على الكنف
ياليته كان بلا نكهة أوليتني كنت بلا انف

وقال فيه أيضاً :

فم الغويري اذا مشته أنتن فم
كم قلت اذ كلمني وآسفي على الحشم

وقال :

ان قاضينا لاعمى ام على عمد تعامى
سرق العبد كأن ال عبد من مال اليتامى

وقال

يا قاضيا بات اعمى عن الهلال السعيد
افطرت في رمضان وصمت في يوم عيد

وقال :

رأيت بعض الناس فضلا اذ نمى يقصر عنه فضل عيسى بن مريم
عزوه الى تسع وتسعين والد ؟ وليس لعيسى والد حين ينتمي

وقال :

مطفل اطفل من اشعب مازال محروماً ومذموما
لو انه جاء الى مالك لقال اطعمني زقوما

وقال :

نظر الى وجه ابي زيد اوحش من حبس ومن قيد
وحوشه ترتع في ثوبه وظفره يركب للصيد

وقال في رجل كثير الشرب بطيء السكر :

يقال لماذا ليس يسكر بعد ما توالت عليه من ندامه قرقف
فقلت سبيل الخمر ان تنقص الحجى فان لم تجد عقلا فماذا تخيف ؟

وقال :

نبئت انك منشد ما قلته في سب عرضك لا تخاف وعيدي
والكلب لا يجزى ذا احسانه والقار لا يخشى من التسويد

وقال :

تزلزلت الارض زلزالها فقالوا باجمعهم ما لها ؟
مشى ذا الثقيل على ظهرها فاخرجت الارض اثقالها

وقال :

وناصح اسرف في النكير يقول لي سدت بلا نظير
فكيف صغت الهجو في حقير مقداره اقل من نقير
فقلت لا تنكر وكن عذيري كم صارم حرّب في خنزير

وقال

يا افح في المنظ ر من دب على غول
ويا اسمج من طلعـ ـة شيطان على فيل

وقال فيمن زوج أمه :

زوجت امك يا فتى وكسوتني ثوب الفلق
والحر لا يهدي اللحو م الى الرجال على طبق

***

متفرقات

قال في مرض علوي :

يا سيداً افديه عند شكاته بالنفس والولد الاعز وبالاب
لم لا ابيت على الفراش ممهداً وقد اشتكى عضو من عضاء النبي

وقال في الشيب

تصد اميمة لما رأت مشيباً على عارضي قد فرش
فقلت لها الشيب نقش الشبا ب فقالت لا انته ما نقش

وقال :

ولما تناءت بالاحبة دراهم وصرنا جميعاً من عيان الى وهم
تمكن مني الشوق غير مسامح كمعتر بي قد تمكن من خصم

وقال :

كنت دهراً اقول بالاستطاعه وارى الجبر ضلة وشناعه
ففقدت استطاعتي في هوى طبي فسمعاً للمجبرين وطاعه

وقال في شهر رمضان :

قد تعدوا على الصيام وقالوا ... حرم الصب فيه حسن الفوائد
كذبوا في الصيام للمرء مهما ... كان مستيقظاً اتم الفوائد
موقف بالنهار غير مريب ... واجتماع بالليل عند المساجد

وقال :

راسلت من اهواه اطلب زورة ... فاجابني اولست في رمضان؟
فاجبته والقلب يخفق صبوة ... اتصوم عن بر وعن احسان
صم ان اردت تحرجاً وتعففاً ... عن ان تكد الصب بالهجران
اولا فزرني والظلام مجلل ... واحسبه يوماً مر في شعبان

وقال يرثي ابا الحسن السلمي :

اذا ما نعى الناعون اهل مودتي ... بكيت عليهم بل بكيت على نفسي
نعوا مهجة السلمي وهي سلامة ... غلبت عليها فالسلام على الانس

وقال يرثي ابا منصور كثير بن احمد :

يقولون لي اودى كثير بن احمد ... وذلك رزء في الانام جليل
فقلت دعوني والعلا نبكه معاً ... فمثل كثير في الرجال قليل

وقال :

يا اهل سارية السلام عليكم ... قد قل في رضيكم الخطباء
حتى غدا الفأفاء يخطب فيكم ... ومن العجائب خاطب فأفاء

وقال في اخوين صبيح وقبيح :

يبكي حكى المحيا ولكن له اخ حكى وجه ابي يبكي (١)

وجمع اسماء قداح الميسر في قوله :

ان لقداح امرها عجيب الفذ والتوأم والرقيب
والحلس ثم الناهس المصيب والمصفح المشتهر النجيب
ثم المعلّى حظه الترغيب هاك فقد جاء بها الترتيب

وقال :

دارك لي جنة ولكن بوابها مالك الجحيم

وقال :

ومغنٍ يتعنى بطعام وشراب
فاذا رمنا سكوتا فمال وثياب

قال القاضي ابو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني انصرفت يوماً من دار الصاحب وذلك قبل العيد فجاءني رسوله بعطر الفطر ورقعة مكتوب فيها :

يا ايها القاضي الذي نفسي له مع قرب عهد لقائه مشتاقه
اهديت عطراً ممش طيب ثنائه فكأنما اهدي له اخلاقه

---

(١) يبكي عن الموت يابي يجبى .

وكتب الصاحب الى ابي هاشم العلوي وقد أهدى اليه يوم اضحى عطراً في طبق فضة :

اقبل من الطيب الذي اهديته ... ما يسرق العطار من اخلاقك
والظرف يوجب اخذه مع ظرفه ... فأضف به طبقاً الى اطباقك

وورد ابو حفص الشهرزوري على الصاحب وكان في بصره سوء وقدمه اليه بعض كتابه فقال له الصاحب مداعباً

وكاتب جاءنا باعمى ... لم يحو علما ولا نفاذا
فقلت للحاضرين كفوا ... فقلب هذا كعين هذا

وقال يتشوق الى اصبهان :

يا اصبهان سقيت الغيث عن كثب ... فانت مجمع اوطاري واوطاني
والله والله ما انسيت برك بي ... ولو تمكنت من اقصى خراسان
يا حبذا ارضها والشمل مجتمع ... والدهر ما خانني في حزب اخواني
ذكرت ديمرت اذ طاب الغناء بها ... يا بعد ديمرت من ابواب جرجان

الفهرس

الصاحب ابن عباد

	صفحة		صفحة
نسبه	٣	جلالة قدره	١٢
مولده وموطنه	٥	رضاه عن نفسه	١٧
نشأته	٥	حبه للعرب وبغضه للشعوبية	٢٠
عند ابن العميد	٧	ما اخذ عليه في اخلاقه وسيرته	٢٣
عند مؤيد الدولة	١٣	اخباره	٨٦
عند فخر الدولة	٣٤	علمه وادبه	١٠٣
وفاته	٤١	كتبه	١١٤
صفته واخلاقه	٤٩	اسلوبه وخصائصه	١٢٩
مذهبه	٥١	شعره	١٥٨
كرمه	٥٦	نصوص من كلامه	١٦١
مكارم اخلاقه	٦٠	امثلة من شعره	٢٢٥

جدول الخطأ والصواب

خطأ	صواب	سطر	صفحة
على ابي الفتح ثم	على ابي الفتح في السابع من شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٦ ثم	١٢	٢٣
عضد لدولة	عضد الدولة	٦	٢٥
سـ ني	سرني	١٢	٢٧
أن	ادن	١	٣٢
بلعك	بلغك	١٤	٣٤
وقال	قال	٩	٤١
ذريه	دزبه	١٢	٤٨
ابن بي خالد	ابن ابي خالد	٢	٧٧
ومساكي	وامساكي	١٥	٨٠
بخزوى	بجزوى	١٧	٨٧
متع	فتح	١٣	١٢٩
لا الاقرار	الا الاقرار	٨	١٥٧
في	في	٦	١٦٤

خطأ	صواب	سطر	صفحة
لدهر	الدهر	١١	١٦٨
قول	اقول	١٢	١٧٠
الطربق	الطريق	١٦	١٦٥
يجملها	يجعلها	١	١٩١
تشوفت	نشوفت	١٦	٢٠٠
قلبه	وقلبه	٣	٢٠٢
فر	فا	١٤	٢٠٢
واملة املك	املة واملك	١٠	٢٠٥
المطالا	المطالب	٧	٢٠٦
تعريض الشرود	تعريض النعم للشرود	١٤	٢٠٨
الايجاز	الايجاز	٤	٢١٠
على قر	من قر	١٠	٢١٤
دينادا	دينارا	٥	٢٢١
الرتجى	للرتجى	٩	٢٢١
ودت	وردت	١٢	٢٢٢
العزة	الغرة	٣	٢٢٤

خطأ	صواب	سطر	صفحة
مصبرا	مصيرا	١٧	٢٢٧
جناخه	جناحه	٩	٢٢٩
مثل	مثل	١٠	٢٤٠